٣٠٢

HARLEQUIN

روايات احلام

ليل وقمر.. وأسوار

صوفي ويستون

www.elromancia.com
مرمورية

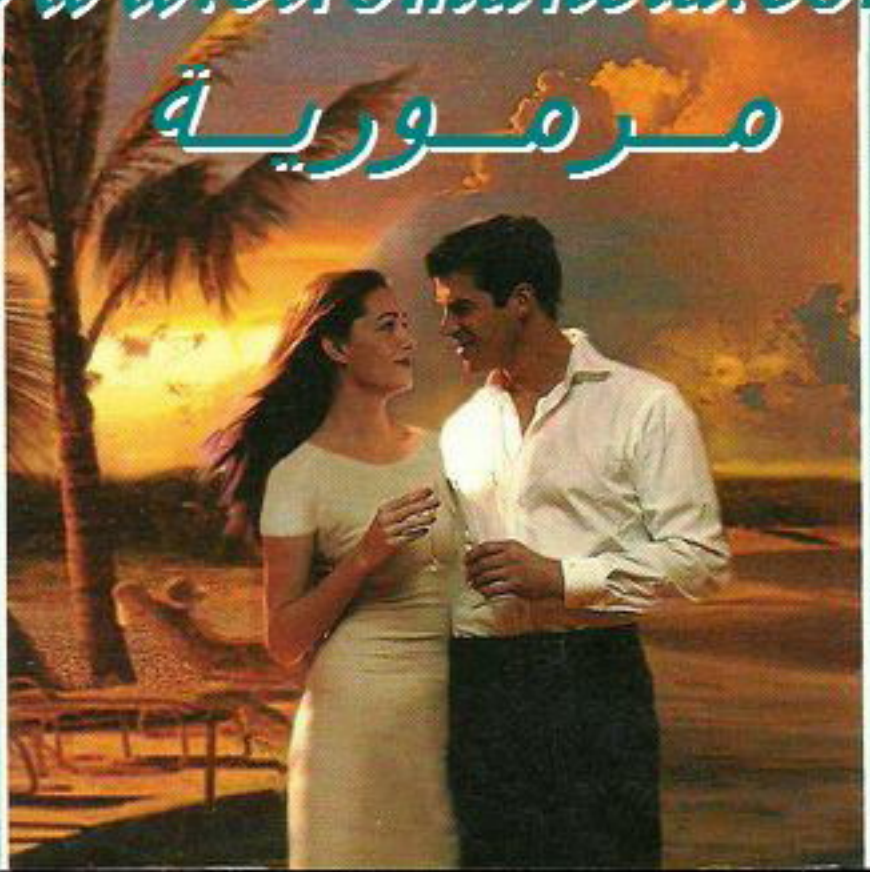

ليل وقمر.. وأسوار

لم يكن السير فيليب هاردستي من البشر... أو هذا على الأقل ما كان يعتقده الناس! إلى أن فقد، للمرة الأولى في حياته، توازنه ووقع أسيراً لا مرأة... كيت روماني!

لكن هذا الهالة التي تحيط بفيليب لن تخدع كيت بسهولة... إذا كان فيليب راغباً بها، عليه أن يدفع الثمن!

مع ذلك وافقت على أن تكون مساعدته المؤقتة وأدرك فيليب أنه في منتصف الطريق إليها. والآن، عليه أن يبذل جهده لجعلها عروساً له في أقرب وقت.

صوفي ويستون

ولدت صوفي في لندن وفُطرت على حب السفر والكتابة فخطّت سطورها الأولى وهي في سن الخامسة. وألّفت روايتها الأولى وهي في فترة نقاهة من مرض ألمّ بها وجعلها تظنّ أنها بلغت نهاية المطاف. لكنها كانت مخطئةً في ظنها. فقد استعادت عافيتها وأعجبتها تجربة الكتابة فالتزمت بها إلى اليوم.

تقيم صوفي وستون اليوم في قلب العاصمة البريطانية النابض مع قطّتين متطلّبتين وشجرة كرز. وهي لا تنفكّ تجوب العالم بحثاً عن مواقع جديدة تحوّلها الى مسارح أحداث لرواياتها.

وقد عرفت رواياتها بأنها تنقل القارىء الى أماكن غريبة مثيرة؛ كما يشهد لبطلات رواياتها العصريات بأنهن يدغدغن شعور القارىء بأسلوبهن المميز في الحصول على أفضل الرجال في العالم!

تدعو صوفي وستون قراءها لزيارة موقعها على الانترنت:

WWW. Sophie - Weston.com

تمهيد

لم يمضِ اربع وعشرون ساعة على وجود ذلك الرجل الانكليزي بينهم. ومع ذلك، اتفق الجميع على أنه يسبب لهم الحيرة. فماذا يفعل ذلك الارستقراطي في بعثة للسلام تجوب أدغال أفريقيا؟ قد يماثل نجوم هوليوود سحراً بشعره الليلي ومظهره المتغطرس إلا أنّ طوله الفارع وجسده النحيل الذي لا يعرف التعب أبداً، يجعله يبدو رشيقاً كالقطة.

لدى سماعهم في البداية. أن بيروقراطياً من نيويورك سينضم إليهم في رحلتهم الاستكشافية إلى الأدغال، شعروا بالامتعاض. ولكن عندما علموا أنه ينتمي كذلك إلى الطبقة الأرستقراطية في لندن، كادوا أن يتمردوا. فتساءل تكساس ذاهلاً: «السير فيليب هاردستي؟».

لم يكن أحد منهم يود صحبة ارستقراطي متمدن.

كان النقيب سوفر أشد المعارضين لوجوده، رغم التزامه الصمت التام. كانت الرحلة محفوفة بما يكفي من المخاطر الكامنة في الأدغال وفي أطباع المحاربين التي لا يمكن التنبؤ بها. فقد اجتازوا أميالاً لرؤية أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب «المحاربين الأحرار».

مع ذلك أصرت الرئاسة العليا على ذهاب فيليب هاردستي معهم وكانت مصيبة في ذلك تماماً. فقد كان الرجل يتقن حتى إشعال النار وسبل إخمادها. حتى أن النقيب سوفر سأله، فيما كانوا يتحلقون حول النار:

ـ كيف تعلمت هذا النوع من الأعمال؟.

كانت هذه أمسيتهم الأخيرة قبل بلوغ معسكر الثوار. لقد أدركوا، هم

الستة الذين تطوّعوا لإنجاز هذه المهمة، بأنه لا يمكن التنبؤ بما ينتظرهم في المعسكر. لقد أعرب زعيم الثوار رفيق عن رغبته في التفاوض، وقد تولى بنفسه زمام المبادرة، غير أنها لن تكون المرة الأولى التي يكذب فيها الثوّار.

قال فيليب هاردستي: «إنه تقليد عائلي».

فأجاب النقيب سوفر الذي كان أوسترالياً، بجفاف: «تقليد انكليزي متأصل! منذ متى باشرت الأمم المتحدة نشاطها؟ هلاّ ذكرّتني».

وابتسم فيليب هاردستي: «لطالما كان آل هاردستي يتعاطون بشؤون الناس قبل أن تفكر الأمم المتحدة بذلك بكثير. لقد تولينا المهمّة منذ قرون خلت».

أجابه النقيب الذي لا يستسلم بسهولة، في محاولة للتقرب من فيليب هاردستي أو بالأحرى في سبيل تنفيذ المخطط: «أراهن على مهارتك في هذا المضمار».

ـ لا يجدينا القيام بأمرٍ، ما لم نحسن أداءه.

وافق النقيب بقوله: «أوافقك الرأي. إذاً، هل تحبّذ عائلتك هذا المجال؟».

وأعقب كلامه صمت قصير قبل أن يضيف هاردستي:

ـ ليس لدي عائلة بل أقرباء. لا عائلة.

بانت الدهشة الصادقة على النقيب: «آه».

وماتت الابتسامة الرائعة على شفتي السير فيليب الذي رد باعتدال: «تحتاج العائلة إلى التزام وأنا عاجز عن تأمين ذلك».

وتململ النقيب بانزعاج، لأن الرجال يعترفون أحياناً خلال أدائهم مهمات عاجلة وخطرة كهذه، بأمور يتمنّون لاحقاً لو أنهم لم يتفوّهوا بها. لم يشأ النقيب أن يكون المدافع عن ضمير فيليب هاردستي، ولكن الرجل لم يكن يتكلم على ما يبدو عن ضميره إذ قال بصوت مجرّد من العواطف: «أنت تعي أن التفاوض يقتضي سماع وجهة نظر سائر الأطراف. علينا أن

نعترف بأن لا أحد معصوم عن الخطأ، فالسلام هو مجرّد سعي لإيجاد مكان حيث يستطيع الكل أن يأخذ حصة مما يريده».

ذهل النقيب لكلامه فقال: «إذاً؟».

ـ إذاً فعدم الالتزام هو سر نجاحي المهني. لأنه يتوجب علي التزام الحياد تماماً مع جميع الأطراف.

تأمّل النقيب في كلامه معقّباً: «ولكن الأمور الشخصية مختلفة».

فقال فيليب هاردستي بصوت بارد ومعتدل يشوبه القليل من التعب: «ليس بالنسبة لي، إذ لا يمكنني أن أعيش حياتين. لا أستطيع إلا أن أكون نفسي في جميع الأحوال».

فكر النقيب بأن ذلك ربما هو السبب الذي جعل ذاك الوغد الذي سيلتقونه غداً يثق به: «ألهذا السبب، ليس لديك عائلة؟ فهمت... ولكن يبدو لي أنك تتخلى عن الكثير».

هزّ فليب رأسه مكرّراً القول: «إنه تقليد عائلي».

تردّد النقيب في معاودة سؤاله، لكن رؤية الآخرين يحرسون أو يغطون في نوم عميق جعلت الاعترافات أمراً طبيعياً. فسأل بفضول: «أليس ذلك موحشاً؟».

كان ليل الأدغال حافلاً بأصوات الحيوانات والطيور الكاسرة وفيما كان أحد الطيور يهمّ بالتحليق، رفع فيليب يديه نحو النار، مع أن الليل لم يكن بارداً وقد بدأت النار بالخمود فردّد: «الوحدة؟ طوال الوقت».

* * *

بعد خمسة أيام، كان النقيب سوفر يجيب على أسئلة الصحافيين في قاعة المؤتمرات في مهبط الطائرات في مقاطعة «بيلاتغ».

لقد نجا الجميع بحياتهم وكانت تجربة خطرة، فذلك القسم من الأدغال لم يكن مدرجاً ضمن الخطة، وقد عادوا ببعض العيّنات الجديدة. أكمل سوفر كلامه: «والآن، سنقوم بنشر الخريطة التي هي الهدف الأساسي

للرحلة منذ البداية».

وسأل المندوب المحلي لجريدة يومية أوروبية محاولاً تنشُّم خبر ما: «لقد اصطحبت المفوض لدى الأمم المتحدة، السير فيليب هاردستي خلال الرحلة الاستكشافية. هل لديك تعليق ما؟».

قال النقيب سوفر عابساً: «طبعاً. إنه لشرف كبير».

بعد فترة، وبينما كان يشرب العصير تحت أشجار النخيل، قال سوفر: «ذلك الإنكليزي هو ظاهرة بحدّ ذاتها. اعترف بأنه الوحيد القادر على حمل أولئك المجانين على عقد السلام».

فسأل المندوب بفضول بالغ: «وكيف يبدو؟ أعني كشخص».

أنزل النقيب سوفر كوبه وقد بدا وجهه رصيناً: «إنه الأكثر وحدة في الكون».

* * *

١ ـ دعوة إلى الفردوس

ـ إنه زبون آخر راضٍ عن عملك.

قالت السيدة لودفيغ ذلك دافعة بالمغلف عبر طاولة المكتب: «يريدون أن تمكثي طبعاً؟».

ردّت كيت روماني وهي تضع المغلف الذي يحوي راتبها في جيبها دون فتحه: «هذا لطف منهم».

فكّرت السيدة لودفيغ بأن الطريقة التي تنتهجها تلك الفتاة في تجاهل المال، هي بالفعل غريبة. سألتها بفضول: «ألا تراودك الفكرة مطلقاً؟».

هزت كيت برأسها: «الالتزام بوظيفة واحدة؟ تعجبني حريّتي».

الحرية لا تروقها فحسب بل إنها تحتاجها أيضاً. لقد لزمها وقت طويل للحصول عليها، لذا فهي متشبثة بها الآن كما يتعلّق الغريق بخشبة النجاة.

هزت السيدة لودفيغ رأسها متابعة: «لا شك في أن هذا الوضع يناسبنا، فأنت أفضل موظفة حصلنا عليها، ولكن ألا يجدر بك التفكير بمستقبلك؟».

أجابت كيت بحزم: «أعيش كل يوم بيومه. هكذا هي طبيعتي».

أذعنت السيدة لودفيغ ونظرت سريعاً إلى لائحتها: «حسناً، ستجري

www.elromancia.com

ورشة تنظيف الأسبوع المقبل في مكتبة في مقاطعة «بيمليكو». سيعود المالكون إلى المكان إثر إخلاء المستأجرين. أظنك ستحبين ذلك لأنك ستحظين بالمكان لنفسك. تحتاج كتب آل هندرسون إلى تجليد ولقد أرسلوا خصيصاً في طلبك. على فكرة... آه، لا، إنه للشهر المقبل. آه، انتظري، هناك آل برانت مجدداً».

والتقطت أنفاسها لتقول: «كلا، هذا لن ينفع، سيكون عليك الاهتمام بالفتاة الصغيرة بعد المدرسة لبضع ساعات».

بالرغم مما قالته، تطلعت المرأة نحو كيت مستفسرة، فآل برانت هم زبائن جيدون وهي تود أن تخدمهم على أفضل وجه. ففي مسائل متعلقة بالجدارة والثقة، كيت روماني هي الأفضل. غير أن كيت هزت شعرها الأشقر بقوة فالشيء الوحيد الذي ترفض القيام به، هو رعاية الأولاد.

بل هناك أمران لا تقدم كيت على فعلهما: الاهتمام بالأولاد والمواعدة. وهذا أمر يثير الاستغراب لمجرّد التفكير به. فهي فتاة جذابة، وجهها جميل وبشرتها رائعة ومظهرها الرشيق يجعل الناس يستديرون في الشارع لينظروا إليها.

وأعلنت كيت: «ليس آل برانت. أوكليني بورشة التنظيف تلك، فأسبوع بكامله قد يوصلني إلى الفصل العاشر».

ضحكت السيدة لودفيغ: «إلام تستمعين هذه الفترة؟».

- إلى الشعر الحربي.

كانت كيت محبّة للعلم بالفطرة، فعندما تعمل بمفردها، كانت تستمع إلى شريط يتعلق بموضوع تقرأ عنه. عندها، يمكنها التنظيف، وقيادة السيارة وركوب الخيل... أو فعل أي شيء تتقاضى أجراً للقيام به. وقد سبق لها أن شرحت لهيلين لودفيغ أنها تسعى طوال الوقت إلى زيادة معلوماتها.

قالت هيلين مبدية الضجر: «لن أعارضك في ذلك، تولّي منزل بيمليكو. خذي المفاتيح نهار الإثنين من المكتب».

أومأت كيت ونهضت: «أراك لاحقاً».

- عطلة سعيدة.

ذهبت كيت إلى منزلها وصعدت السلالم المؤدية إلى الباب الأمامي. عندما دخلت، وجدت الفوضى تعمّ أرجاء المنزل، الذي كان يعبق برائحة امتزج فيها الحامض بالقرفة، ما ينبيء أن صاحبة المنزل كانت تحضر طبقاً ما.

تقطن كيت في الدور السفلي، وقد تم لها ذلك بفضل صهرها الذي تملك عمته المنزل. كانت العمّة تاتيانا تعمل كراقصة باليه في الماضي ويعتريها مزاج الفنانين. وهي المسؤولة عن تلك الفوضى، فهي تقيم مساء الجمعة حفلات صاخبة. تسللت كيت على رؤوس أصابعها فلا شك أن المالكة ستطالبها بحضور حفلة الليلة إذا ما لمحتها، لأنها كانت تعارض علناً ميول كيت الانعزالية. سبق أن قالت لها ذات صباح بأن تعيش حياتها. كانت كيت حينها عائدة من سباحتها الصباحية. وأضافت: «العمل والسباحة هما الشيئان الوحيدان اللذان تقومين بهما خارج هذه الشقة».

قالت كيت بنبرة دفاعية: «أنا آخذ دروساً في القيادة».

قالت تاتيانا حانقة: «تحتاجين إلى رفقة رجل بدلاً من رفقة سيارة».

ردّت كيت بوقاحة: «لقد سبق وجربت ذلك».

ونظرت إليها تاتيانا، فبدت كسلحفاة هرمة وحكيمة: «آه، أجل؟ ومتى؟».

هزت كيت رأسها بانزعاج وإنما بمرح شعرت به رغماً عنها، وقالت: «لمَ تستمرين في إثارة الموضوع؟ وكأنني أخضع لرقابة الشرطة!».

لم تشعر تاتيانا بالإهانة بل بدت في الواقع سعيدة. فساور الشك كيت، فقالت: «هل أحاطتك ليزا علماً بذلك؟».

ردّت تاتيانا بازدراء: «لم يكن عليها ذلك. أنت لا تخرجين إلا عند حلول دروسك المسائية. على فتاة بمثل جمالك أن تمرح».

أجفلت كيت. فقالت تاتيانا بنبرة حسد: «بشعرك الذهبي وعينيك الخضراوين، تستطيعين أن تكوني مذهلة إذا ما رغبت بذلك. غير أنك لا ترتدين إلا أكياس البطاطا ولا تذهبين أبداً إلى أي مكان».

قالت كيت وقد فقدت هدوءها: «أذهب حيثما يحلو لي، وارتدي ما يحلو لي وإذا لم يسعك تقبل ذلك استطيع الرحيل من هنا».

إلا أن تاتيانا تراجعت عن التحدي وانسحبت إلى غرفتها وبينما كانت كيت تتجه إلى شقتها الخاصة، سمعت رنين الهاتف حتى قبل أن تضع المفتاح في القفل. فتحت الباب بسرعة ودخلت قبل أن تسمع تاتيانا الرنين وتخرج من عرينها.

ـ آلو؟ كيت؟

قالت كيت بنبرة عدم تصديق: «ليزا؟».

يُفترض بشقيقتها أن تكون في فردوس استوائي، تمضي العطلة مع زوجها العالم الطبيعي، فيما تخضع هي أيضاً لفترة نقاهة إثر سلسلة من الالتهابات التي أصابتها في الشتاء.

ـ لَمَ تتصلين بي بحق الله؟ يُفترض بك أن تكوني مسترخية على شاطىء وارف بأشجار النخيل.

وعندها استدركت بسرعة فقالت: «هل يشكو نيكولا من سوء ما؟».

ـ لا أعلم، فبالكاد أراه.

وغاص صوت ليزا كما لو أنها تتكلّم من قعر المحيط.

ثم تابعت ليزا قائلة: «أخبرني أن الفندق يستضيف مؤتمراً محلياً وأنه قد يشترك فيه. ظننت أنه يقصد بذلك الذهاب لإجراء بضع محادثات، ولكنه يبقى هناك طوال الوقت، وقد وافق الآن على الانضمام إليهم للكلام».

كانت كيت تعلم أطباع شقيقتها فمن نبرة صوتها، أحست بأنها تبذل جهداً جباراً للسيطرة على غضبها.

وأكملت ليزا: «أي نابغة فكر ببناء فندق فخم على مشارف خط تماس؟ قولي لي!».

وكررت كيت القول متنبهة: «خط تماس؟».

ونفد صبر ليزا فقالت: «يبدو أن الحرب قد خمدت في الوقت الحاضر وهذا هو سبب انعقاد كل تلك المؤتمرات على ما أعتقد. ولكن، لا أظن أن عاقلاً ما يأتي إلى هنا لقضاء عطلة».

ونظرت كيت إلى نافذتها المطلة على الحدائق الشاسعة الغارقة في المطر فأكدت بحزم: «إذا كان الطقس عندك جميلاً مشمساً، فيمكنك أن تتمتعي بالعطلة. ولا أظنك تودين معرفة أحوال الطقس في لندن هذا المساء».

أضافت ليزا بسرعة: «إذاً تعالي وشاركيني عطلتي».

ـ لم أرغب يوماً بلعب دور الدخيلة.

وأطلقت ليزا ضحكة قاسية: «اطمئني فأنا لا أرى نيكولا أبداً وهذه هي المشكلة، ما من أحد أتكلم معه أو حتى ما من شيء أفعله».

ثبتت كيت سماعة الهاتف على أذنها ثم انحنت إلى الأمام لإشعال النار مضيفة: «هيا، تماسكي. لا يمكن للوضع أن يكون بهذا السوء. تمتعي بالطبيعة الخضراء من حولك، فمن يحتاج لعمل شيء إذا كان باستطاعته التمدد بكسل على الشاطىء؟».

أعقب ذلك صمت مؤقت ومزعج. ما الذي حدث بحق الله؟ فكرت كيت مضيفة في سرّها بأن المرة الأخيرة التي رأت فيها ليزا ونيكولا، كانا يتحرّقان للرحيل معاً. وقد أصيبت ليزا بعدها بالتهابات حادة في الأسابيع التي سبقت الميلاد.

كان يفترض بهذه العطلة الاستوائية أن تتيح لهما المجال لقضاء بعض

الوقت معاً. الآن، وبعد مرور أربعة أيام فقط من الرحلة، بالكاد تتلفظ ليزا باسم زوجها دون اشمئزاز. وخرقت كيت الصمت بقولها: «في شتى الأحوال، لا يسعني دفع تكاليف رحلة إلى بلد استوائي».

ـ أنا أستطيع.

لم يكن لديها شك بذلك. فليزا كانت تترأس غرفة عمليات تجارية في لندن، وكانت مكافأتها السنوية لوحدها تدخل البهجة إلى عيني كيت لو كانت مكانها، إلا أنها أكملت: «ولكنك فعلت الكثير لأجلي طيلة هذه السنوات ليزا. سأدفع على طريقتي الخاصة وضمن إمكانياتي».

فأضافت ليزا بنعومة فائقة: «ولكنك لا تستطيعين تحمُّل مصاريف رحلة إلى بلاد استوائية، وأنا أحتاج إليك هنا. أحتاج فعلاً إلى شيء من الدعم يا كيت».

وأيقنت كيت مغزى تلك النبرة. كانت ليزا تحاول كبح رغبتها بالبكاء. وفجأة، انفجر صوتها المتماسك: «أشعر بالوحشة».

كادت كيت تشلّ من الصدمة، ولكن ليزا تابعت: «ثمة رحلة الأحد المقبل، وقد حجزت لك من باب الاحتياط... فكري بالموضوع على الأقل».

وأقفلت الخط دون عبارة وداع.

راحت كيت تذرع الغرفة بانزعاج. هل فشل زواج ليزا ونيكولاي؟ ولكن لِمَ؟ كان زوج ليزا أرستقراطياً، أما الشقيقتان فكانتا تنتميان إلى مستوى اجتماعي متدنٍ. لقد حصّلت ليزا تعليمها ووظيفتها المرموقة بناءً على جهودها الفردية، إلا أن ذلك لم يشكل عائقاً من قبل. ولو سئلت كيت، لقالت بأن الكونت نيكولا إيفانوف هو اليوم أشد هياماً بزوجته أكثر مما كان عند زواجه بها.

لكن الكلام الذي سمعته الآن من ليزا، لم يبدُ لها كلام الزوجة المحبة. كانت كيت تحب ليزا، فلقد كانت أكثر من شقيقة بالنسبة لها، لا بل

صديقتها الحميمة. ربما حان الوقت لتتخلّى كيت عن مبادئها في النهاية. كانت تشعر بالاضطراب عندما سمعت نقراً على الزجاج.

فتحت الباب بحماسة غير معهودة فقالت تاتيانا وقد أدركت مصدر تلك الحماسة بدقة: «اتصلت بك ليزا».

ـ أجل، وأنا قلقة.

ـ وأنا أيضاً.

قالت كيت وهي تعضّ على شفتها. «لقد بدت محطّمة».

ـ ومتى كلّمتها؟

ـ الآن. تريد مني أن أذهب إليها.

وانتظرت كيت لسماع تاتيانا تقول: لا تتدخلي. فهي تظن بأنها الشخص الوحيد المؤهل للتدخل في شؤون ليزا ونيكولا، إلا أنها لم تفعل وعلا وجهها المتغضن المليء بالحيوية تعبير مهمومٍ، وسألت: «هل كلّمتها الآن؟».

أومأت كيت قائلة: «لقد أقفلتُ للتوّ سماعة الهاتف، أو بالأحرى أقفلت هي إذ بدت مستاءة فعلاً».

وبدت تاتيانا على شفير البكاء: «هل تدركين كم يبلغ فارق التوقيت بيننا؟».

ذهلت كيت: «وما دخل ذلك بهذه المسألة؟».

فأجابت تاتيانا التي جالت الكثير من البلدان: «إنها السابعة مساءً هنا أي الثالثة فجراً في فندق كورال كوف... الثالثة وهي تتصل بك. أين زوجها بحق السماء؟».

توقفت كيت عن ذرع الغرفة مذهولة ثم قالت وكأنها تتوجه بذلك إلى نفسها: «لا عجب في أنها بدت... منهارة».

أردفت تاتيانا بنبرتها الاعتيادية التي كانت كيت دائماً تجدها مربكة خصوصاً عندما تختلط بنظرياتها الفلسفية: «أتحتاجين إلى سيولة؟».

هزت كيت رأسها نفياً شارحة: «لقد حجزت لي ليز مقعداً ودفعت ثمن التذكرة، كما أنني لم أستخدم بطاقة الاعتماد خاصتي لشراء أي شيء هذا الشهر. سأتدبر أمري».

فقالت تاتيانا التي تعتبر أن الثياب هي نافذة الروح: «تحتاجين إلى ملابس صيفية».

هزت كيت كتفيها بلا مبالاة. فقفزت تاتيانا عن الأريكة باحتجاج: «أنت لا تطاقين. أنظري إلى نفسك بشعرك الذهبي الرائع، وبشرتك الرائعة ووجهك الجميل. أنت طويلة القامة ونحيفة كالعارضات. لم لا تخرجين لشراء تنانير مثيرة وبلوزات تسلب الألباب؟».

قالت كيت بصوت بدا لها حاداً أكثر من اللزوم: «توقفي، تاتيانا. أنا ارتدي ما يحلو لي».

أعلنت تاتيانا بعد تفكير: «حسناً، أحضري على الأقل ثوب سباحة. لقد رأيت بعض المايوهات البيكيني في...».

تصلبت كيت وكادت تصرخ: «لا أريد بيكني».

حدقت بها تاتيانا، فقالت كيت بنبرة أكثر اعتدالاً: «سأشتري ثوب سباحة وقمصاناً واسعة من المتاجر الرياضية».

ـ وشورتات وبلوزات خفيفة. أنت لا تعرفين مدى حرارة الطقس هناك.

وأضافت تاتيانا محذرة إياها: «خذي شيئاً لائقاً للسهرة وقبعة من القش لتحمي رأسك من الشمس فكورال كوف تقع على الخط الاستوائي وعليك توخي الحذر خاصة لأنك شقراء».

ـ أشكرك على النصيحة، ولكن ألا يجدر بي شراء قبعات القش وتلك الأغراض من هناك؟

صرخت تاتيانا: «تعلمين بأنه ليس منتجعاً سياحياً للمراهقين. لن يكون هناك أكشاك لبيع الهوت دوغ أو أسواق تجارية، فنيكولا أخبرني بأن

كورال كوف هو واحد من أفخم الفنادق في العالم».

هزت كيت رأسها بنفاد صبر: «آه، لِمَ تهتمين بما أفعله بحياتي؟».

قالت تاتيانا بقوة: «لأنك لا تملكين إلا حياة واحدة ولا أطيق رؤيتك تهدرينها».

وساد صمت مزعج فأشاحت كيت بنظرها أولاً وهي تعض شفتها. كانت تاتيانا تجهل الكوابيس التي تراود كيت أحياناً فتعجز عن النوم طوال الليل كما أن ليزا لم تكن تعلم بكل ذلك. أخيراً قالت بصعوبة: «إسمعي، أعلم أن ذلك لن يناسب تطلعاتك في الحياة تاتيانا، ولكن، لسنا جميعنا شجعاناً لارتياد كل الأمكنة وتجربة كل الأمور».

ـ ليس للشجاعة أي علاقة بالموضوع.

أضافت كيت بهدوء: «آه، بلى».

وواجهت المالكة الغاضبة بثبات: «صدقيني، أبذل ما في وسعي. لقد جرّبت العلاقة العاطفية لفترة ما منذ سنوات، إلا أن ذلك لم يفلح. وفقاً لتجربتي، فالرجال يمزقون قلبك أشلاءً وعندما ينتهون من ذلك، يمشون برأسك. ليس لديّ شجاعة لتكرار المحاولة وهذه هي الحقيقة الصادقة».

صمتت تاتيانا برهة ثم أومأت بحزن: «حسناً، إنها حياتك وهذا شأنك الخاص ولكنك ستذهبين إلى «كورال كوف»؟».

أومأت كيت موافقة: «سأذهب».

* * *

كانت ليزا تنتظرها في المطار الصغير، وأحست كيت بأنها تكاد تنهار فعانقتها ليزا: «لقد جئت. ليباركك الله، يا كيت. هل كان صعباً عليك ترك العمل؟».

وعبست كيت: «على العكس، إذ اغتبط الزبائن لدى معرفتهم بأنني سأمنحهم أسبوعاً إضافياً لإخلاء المنزل قبل الانتقال إليه مع معدات

التنظيف».

ألقت ليزا حقيبة يدها على كتفها وقالت: «أنا شاكرة لك جداً. أعلم أنني بالغت في طلبي».

ردّت كيت بجفاف: «أحقاً، إنها مهمة شاقة بالفعل. أسبوع كامل أقضيه على نفقتك في جزيرة استوائية معزولة واتنعم بألذ المأكولات. إنها مهمة لا يتبرّع بأدائها سوى قديس حقيقي».

وتنهّدت ليزا: «حسناً، ليس الوضع رائعاً كما يبدو عليه. الحدائق جميلة والبحر دافىء ولكنني آمل أن تكوني قد جلبت معك الكثير من الكتب».

نظرت كيت نحوها بسخرية فضحكت ليزا: «أجل، بالطبع جلبتِ. ماذا تقرئين هذا الشهر؟ الروسية؟».

ـ إنه ديوان شعر حربي، ولكنني أحضرت معي بعض المجلات أيضاً.

قالت كيت ذلك مطمئنة ليزا التي علقت بدورها: «شكراً لله لأنني طالعت جميع ما في حوزتي».

وقادتها ليزا إلى حيث الشمس الحارقة القوية، فشهقت كيت ووضعت يداً على جبينها لحماية عينيها من وهج الشمس. نظرت إليها ليزا نادمة: «آمل أن تكوني قد جلبت معك نظارات شمسية. لم أفكّر بإطلاعك».

وقالت كيت بوقاحة: «وكذلك تاتيانا مع أنها أجبرتني على إحضار ثوب أنيق».

وانفجرت ليزا ضاحكة وهي تعانق كيت: «حقاً؟ سنحضر لك مراهم للوقاية من الشمس والحشرات ومن ثم نتابع طريقنا. ستضطرين إلى ركوب طائرة هليكوبتر، ستكون تجربة جديدة لك».

أسر منظر كورال كوف أنفاس كيت، فهي تقع تحت شمس المحيط وكأنها جزيرة من ورق. ووعدتها ليزا بنزهة إلى الشلال ذلك المساء.

تراجعت كيت إلى الوراء متنهدة بتلذذ، ثم قالت فرحة: «شمس، بحر وشلالات. أسامح تاتيانا على وضع ذاك الثوب في حقيبتي. أسامح تاتيانا على كل شيء».

غير أنهما لم تتنزها ذلك المساء إلى الشلال، لأن ليزا أقفلت على نفسها رافضة التحدث مع أحد، كما أن نيكولا الذي رحب بكيت من بين أسنانه، قد عاد إلى زملائه المحافظين على البيئة. نظرت كيت إلى صالة الطعام الرسمية مفكرة بذلك الرداء الأسود والفضي الذي رمته تاتيانا في حقيبتها، وقررت ارتداءه على العشاء. ولكن، من جهة ثانية وبما أن الجميع يكون مشغولاً بالعشاء، قد تتمكن من السباحة في البحيرة المبهجة التي استكشفتها مع ليزا في وقت سابق، من دون أن يزعجها أحد.

وقعت كيت تحت إغراء المياه التوركوازية اللون. بدا لها المكان أشبه بجنّة، إلا أن ثلاثة أشخاص آخرين كانوا يشغلونه، ولم ترد كيت حينها أن تخلع ثيابها على مرأى من الكل حتى ولو للسباحة. فكّرت وهي تنظر إلى السماء الداكنة فوق البحيرة، بأن الوقت قد حان؛ فالكل يأكل أو ما زال محجوزاً في المؤتمرات لذا يمكنها السباحة بأمان بعيداً عن أي إزعاج. وكان ذلك مغرياً.

عادت إلى كوخها بسرعة وارتدت ثوب السباحة وفوقه ثوباً قطنياً طويلاً وذهبت للغوص في البحر الاستوائي للمرة الأولى.

* * *

في هذه الأثناء، كانت عينا فيليب هاردستي تتساقان نحو النوافذ المشرّعة مجدداً، فبدا له أن شخصاً ما يسبح في البحيرة. راح فيليب يتأمّل المشهد الرائع وكان الجو الرطب ملتصقاً بجسمه. لم يشأ أن يبدو فضولياً أو متطفلاً فمرر يده في ياقة قميصه... لو أمكنه فك ربطة عنقه. كانت قاعة المؤتمرات في الفندق خانقة، رغم وجود مراوح قديمة الطراز في السقف، ورغم أنّ النوافذ مشرّعة على المصطبة. يبدو أن الهواء قد احتبس في الخارج

كغيمة عاصفة. ولم تكن أضواء آلات التصوير تساعد في التخفيف من الحرارة. كانت مهنته تتطلب منه الجلوس وراء مجموعة من الميكروفونات، مكتفياً بالتصريح أنصاف الحقائق آملا في أن يصدقها الناس ليتوقفوا عن الاقتتال. حوّل نظره عن السباح المنعزل، وأومأ بلباقة إلى الصحافي التالي: «تفضل بالسؤال سيد هير دانكل».

كان يعرف الرجل فهو ألماني الأصل، وقد قابله في مؤتمرات صحفية مقتضبة كهذه في ثلاثة بلدان على مدار السنة الماضية. كان سؤاله جيداً فهو يتمتع بخبرة تفوق خبرة فيليب بعشرين عاماً وفكر للحظة أن جميع من في القاعة يملكون ربما تجربة أغنى من تجربته، كما أن التعب قد أعياه. وهنت ثقته بنفسه لبرهة ومن ثم استجمع شتات نفسه وأجاب بسرعة وابهام كما كان يفعل دوماً.

وعندما انتهى المؤتمر الصحفي، زاح معاونه بحثه على الذهاب إلى مأدبة العشاء. لكن فيليب فكر أن المحاضرة التالية ستتضمن المزيد من الديبلوماسية في تمويه الواقع، المزيد من أنصاف الحقائق، المزيد من الغضب وراء الابتسامات والمزيد من الإدّعاء. فأحس بإعياء شديد.

قال فيليب لمعاونه بلباقته المعهودة: «أعطني برهة من الوقت، أريد تنشق الهواء».

همّ الرجل بالمشي فأوقفه فيليب قائلاً: «لوحدي، ما لم تمانع».

ثم أومأ إلى الرجل وخرج فلفحه الليل الاستوائي على الفور. كان الهواء ساخناً وعذباً، مفعماً بشذا الدوالي. تنشق تلك الرائحة الغنية وتطلع إلى فوق. كانت الملايين من النجوم الصامتة تتلألأ في السماء الرحبة، وكأنها معلقة على دائرة عملاقة. وأمكنه رؤية السماء تدور... وتدور.

لدى وصوله إلى التقاطع الرملي، توقف مصغياً إلى أصوات صرصور الحصاد، والفواكه المتساقطة عن الشجر وخرير المياه العذب وإلى صوت

نفسه.

كانت السباحة المنفردة لا تزال قرب الصخور، تهمّ بالغطس. طافت على السطح ملقية بشعرها المبلّل إلى الوراء وكان من الواضح أنها تحسب نفسها وحيدة. لوّحت بذراعيها فوق رأسها ضاحكة بصوت عالٍ، ثم انصرفت بخفة إلى السباحة كثعلب مائي، فرسمت حولها دوائر فوسفورية مضيئة لثوان معدودة.

كان المنظر بأكمله مثيراً للبهجة. وأدرك فيليب أنه يبتسم. تطلع إلى الوراء نحو الفندق وفكر بأن عليه العودة. كانت المأدبة مرحلة أخرى من مراحل المفاوضات، وكان عليه المشاركة فيها تماماً كما شارك في الاجتماعات التي عقدت على مدى الأيام الثلاث الأخيرة، وكما سيكون عليه المشاركة في جولة الأسبوع المقبل المقررة ضمن سلسلة من المحادثات. غير أن شقاوة الفتاة في المياه ذكرته بالوقت الطويل الذي قضاه من دون أن يقوم بشيء يبهجه. أدار ظهره للمحادثات وللمأدبة، وانطلق في الممر الرملي المحفوف بأشجار النخيل، والمحيط بالبحيرة. كانت الفتاة تشق طريقها نحو اليابسة. ومن المفترض أن يبلغا الحاجز الرملي في الوقت نفسه. وصلت الفتاة أولاً ولا بد أنها سمعته يقترب. واستدارت نحو مصدر الصوت قائلة: «من هناك؟».

كان صوتها مبحوحاً، ومتسارعاً يشوبه شيء من الحذر: «ليزا؟».

لم يكن من العدل إخافتها لمجرد التمتع فقط برؤيتها تتلاعب بالمياه. خرج من ظل أشجار النخيل وقال: «كلا».

أخذت الفتاة نفساً مذعوراً فافترض أن خوفها مبرر نظراً لظهوره المباغت. كان الفندق قائماً على خط التماس، رغم كل فخامته العالمية.

قال بصوته الرزين: «لا تخافي فأنا أقيم هنا. كنت أقوم بجولة قبل تناول العشاء».

نبرته المطمئنة فعلت فعلها، فتخلت عن حذرها على ما يبدو وشقت

المياه وقد مالت بوجهها إليه، قائلة: «وهل أنت من المهتمين بالحفاظ على البيئة؟».

تردّد فيليب. لقد مضى وقت طويل لم يسأله فيه أحد تحديداً عن هويته وسبب وجوده هنا وما سيكون عليه موقفه في مواجهة أي موضوع قد يتم مناقشته. أدرك الآن أنه من الأفضل له أن يتكتم على هويته، لذا لم يجب على سؤالها.

سبحت الفتاة باتجاهه فتلألأت صفحة المياه، كمجموعة من الألعاب النارية. انحنى فيليب إلى الأسفل وراح يحرك يده في المياه التي كانت ترتطم بنعومة بالحاجز الرملي. كانت المياه لامعة ومتحرّكة على شكل دوّامة. أدركته الفتاة ونظرت إلى المياه التي تشع بالأنوار، ثم ضحكت قائلة: «هذا جنون، أليس كذلك؟ لا أدري ما الذي يجعلها هكذا».

فقال فيليب: «الإشعاعات الفوسفورية».

ـ أحقاً؟

بدت الفتاة مهذبة ولكنها لم تكن مقتنعة تماماً من كونه يدرك ما يقول.

ثم كررت سؤالها ثانية: «كيف عرفت ذلك؟ هل أنت مع جماعة المحافظين على الطبيعة؟».

قال متأسفاً: «لا. لست من جماعة المحافظين على البيئة، ولكنني ومنذ نحو مئة سنة، ظننتني سأغدو عالم بحار».

أدارت رأسها في الظلام. كانت تقاسيمها متكاملة مع شعرها الطويل الذي يتدلى على كتفيها. وقد بدا جسدها المختبىء في العتمة ناعماً ومنسجماً مع التيار البحري، وكأنه ينتمي بالفطرة إلى هذا المكان. سمعها تقول بمرح: «منذ نحو مئة سنة؟ لا تبدو عجوزاً إلى هذا الحد».

ارتبك فيليب. ورغم أن العتمة تلف المكان، بدا أنها أحسّت بارتباكه... فضحكت مجدداً وبدأت بالتمايل قليلاً في المياه ثم قالت مداعبة

إياه: «أنت لست عجوزاً. أليس كذلك؟».

كان صوتها أبحّ يجذب السمع، كما لو أنها على شفير الضحك أو البكاء. فسحر بصوتها.

جاراها فيليب آملاً في أن تستمر بالكلام. ورغم أنها لا تستطيع رؤيته، إلا أنه ابتسم وقال: «وما الذي يحملك على هذا الكلام؟».

فقالت بنعومة: «حسناً! لو كنت عجوزاً، لما كنت واقفاً هنا، تتحدث معي متمنياً لو كنت في المياه أنت أيضاً».

هذه المرة، بدا أكثر انزعاجاً إذ أصابته في الصميم، فهو لم يكن واعياً لرغبته تلك. فماتت ابتسامته وفكر أنه لا يستطيع الاحتمال أكثر من ذلك. لكنها تابعت قائلة: «تعال. المياه رائعة ودافئة».

أغرته الفكرة. آه لو كان بإمكانه أن يخلع سترته، وربطة عنقه ويتخلى عن حسن تصرفه لينسلّ معها إلى المياه فيشاركها السباحة والمرح... لكن ذلك سيكون عملاً طائشاً من قبله، وكأنه يتخلى عن مسؤولياته تجاه الكل، وأمام الكل، ويستسلم فقط لسحر اللحظة مع فتاة غريبة. في تلك اللحظة، وضعت الفتاة كلتا يديها على الحاجز الرملي، ورفعت جسمها من المياه. فراحت المياه تقطر منها لامعة على الأرض. بدت ساقاها طويلتين بارزتي الأنوثة. ثم أردفت قائلة: «هناك أثواب للسباحة في كوخ تحت الأشجار».

فأجابها وقد بدا صوته غريباً حتى لنفسه: «حقاً؟».

ـ أجل، إنه كوخ رائع. يعج المكان بالطيور الزرقاء ذات الذيل الطويل.

فقال فيليب بصوته الحازم: «إنها طيور آسيوية».

كانت يداه تنضحان عرقاً، فضمهما مكافحاً للسيطرة على نفسه قائلاً: «أنت شديدة الملاحظة».

متى ستدرك التأثير الذي تحدثه فيه؟ أجابت ضاحكة: «شكراً. تعال

وسأريك إيّاها».

تخيّل نفسه للحظة يسبح معها في الخليج كما كانت تفعل منذ برهة. آه، لو كان يستطيع أن يفعل ذلك!.

فجأة تذكر كلام جده: لا تهمل واجبك والشرف والأصول في التصرّف والحكم السليم... والمسؤولية.... لذا أضاف بصوت مخنوق: «لا».

بدا صوته أكثر ثباتاً الآن وقد ابتعد لا شعورياً عن جسدها الرطب. لقد كانت تلمع تحت ضوء القمر. جل ما استطاع التفكير به هو أنها لا ينبغي أن تعلم التأثير الذي تحدثه فيه لأن ذلك سيفسد سحر هذه اللحظة: «من الأفضل أن أذهب، لقد مرحت بما فيه الكفاية».

فتابعت بصوتها المثير والجذاب كما لو أنها تهتم لأمره بالفعل، أو أنها قد شعرت بالخيبة فقالت: «ألا يمكنك البقاء قليلاً؟».

كان رأسه ما زال يدور، إلا أنه تماسك أعصابه وقدرته على التحكم، فقال بصوت آسف: «أبداً، حتى لخمس دقائق! فعليّ الذهاب. في الواقع سيأتون بحثاً عني إذا لم أعد».

بدت مخذولة وكأنها أصيبت بصدمة. فأمسك فيليب بيدها.

كانت أصابعها طويلة ورفيعة ودافئة على عكس ما تكون اليدان عادة إثر السباحة. قال لها مداعباً: «في شتى الأحوال، لقد حصلت على كفايتي من التسلية لهذه الليلة. لقد التقيت حورية البحر».

توترت يدها بين أصابعه.

أما فيليب فقد انزعج من نفسه لقوله هذا، لأنه بدا عجوزاً تقليدياً. كان يود أن يثبت لها أنه لا يعاملها كأستاذ عجوز لذلك نسي وعده بعدم إفساد روعة تلك اللحظة فجذبها لا شعورياً إلى ذراعيه. سمع صوت أنفاسها المصعوقة، وأحس بنعومة كتفيها. كما أنه شعر باستجابتها. لكنها عادت وانسابت من بين ذراعيه كما لو أنها مصنوعة من المياه وعادت لتغوص في البحيرة مبتعدة عنه.. وفي تلك اللحظة، سمع فيليب وراءه أصواتاً عدة

وإذا بمعاونه يناديه بخفة كما لو أنه يؤدي واجباً فرض عليه: «سير فيليب؟ هل أنت هنا؟ هل أنت بخير سيدي؟».

وفكر فيليب بأن المسؤولية تتبعه مجدداً، وها هو يعود إلى ساحة المعركة ليبدأ جولة أخرى من سلسلة المواقف القديمة الثابتة. فاستدار وذهب لأداء واجبه، بعد أن ألقى نظرة شوق أخيرة على الطيف الفضي الذي ينسل مبتعداً عنه إلى غير رجعة.

***

www.elromancia.com

٢ ـ البحث عن الغريب

سبحت كيت في المياه حتى وصلت إلى البحر. أدركت أنها تخطت الحاجز الرملي الأخير لأن المياه باتت أكثر برودة، كما أن الأمواج بدأت تصفع وجهها. فهمست بسخرية: «الحياة هي تجربة جديدة، واحدة تلو الأخرى».

لقد وضع الغريب يديه عليها، ولكنه لم يمسكها بقوة إلى حد عجزها عن التنفس، كما أنه أطلق سراحها دون تردد عندما جذبت نفسها بعيداً عنه. لم تدع كيت أي رجل يلمسها منذ أن أمسكها جوني وهزّها صارخاً في وجهها أنه لم يحبها يوماً. لقد عانقها الغريب طبعاً، ولكن ألم تبادله العناق؟ أجل، لقد بادلته العناق. كم مضى من الوقت على ذلك؟ لقد تعلقت بجوني كمن أصابها مس. ولكنه عندما كان يعانقها، كانت تحس برعب شديد لأنها إذا لم تظهر له مدى سعادتها سيتركها، وهذا ما فعله في النهاية. وهبّ نسيم فوق المياه، فارتجفت كيت رغم دفء المساء، وأحسّت بلسعات خفيفة تسري على كتفيها العاريتين. لم يكن الوقت الآن ملائماً للتفكير بجوني، وقد حان وقت العودة.

مع وصولها إلى اليابسة، كانت ذراعاها ترتجفان من التعب، وبالكاد استطاعت تحريك ساقيها، إلا أن ذلك لم يمنعها من البحث عن الغريب أو

الشعور بالخيبة لدى تبينها رحيله. فقالت في نفسها: «كفانا تجارب جديدة حتى الآن».

إلا أنها لم تستطع إخفاء شعورها بالحرمان فيما كانت تتجه نحو كوخ السباحة لخلع ملابسها. لم تطلع ليزا على ما حدث للتو أو ما أملت أن يحدث. كانت ليزا في الواقع مقلّة في الكلام.

استحمت كيت وبدّلت ملابسها، ثم تجولت صعوداً على المنحدرات الصخرية لإلقاء تحية مسائية على شقيقتها وصهرها قبل أن تخلد للنوم. لم يظهر لنيكولا أي أثر، أما ليزا فقد جلست وحيدة في الظلام على المصطبة الضيقة خارج كوخها. في الواقع لولا أزيز الكرسي الهزاز لظنت الكوخ مهجوراً. قالت كيت هامسةً في هدأة الليل: «ليزا؟».

في البدء، حسبت أن ليزا قد استغرقت في النوم وكانت على وشك الابتعاد عندما قالت الأخيرة: «أنا هنا».

ارتقت كيت السلالم الدائرية بحذر وصولاً إلى المصطبة.

كانت ليزا تبكي، لا شك في ذلك، وقد انتفخت عيناها. ضمت ليزا شفتيها قائلة: «لا أشعر أنني بخير».

نظرت إليها كيت بضيق وسألتها:

ـ ليزا، ما الخطب؟ وأين نيكولا؟

هزت ليزا رأسها بلا مبالاة: «مع زملائه الآخرين على ما أعتقد».

وبان القلق على كيت فسألتها: «ولم لم تذهبي معه أنت أيضاً؟ هل بقيت بسببي؟».

هزت ليزا رأسها بالنفي: «لم أشعر برغبة في ذلك».

وتعاظم القلق على وجه كيت فأردفت: «ولكن لا بد أن نيكولا يريدك قربه».

فقالت ليزا بمرارة مفاجئة: «ومن يعلم ماذا يريد نيكولا. آه، إنسي

الموضوع. أخبريني كيف وجدت غرفتك؟ هل اكتشفت كيف تعمل المراوح؟».

واستسلمت كيت. ستطلعها ليزا على ما يجري عندما تقرر أن الوقت مناسب لذلك. لذا أضافت بمرح: «أجل، أدرت المراوح والستائر الكهربائية وتخلصت من التلفزيون والمرايا».

أجبرت ليزا نفسها على الضحك: «أنت وحملتك لمكافحة المرايا».

وعبست كيت قائلة: «لقد هزمتني تلك المرآة التي في الحمام فهي مثبتة على الحائط».

فضحكت ليزا بعفوية أكثر من السابق.

نجحت محاولتها في إضفاء المرح. ولكن سرعان ما ماتت الابتسامة على شفتي ليزا فعادت الأمور إلى جديّتها.

قالت كيت بصدق: «اسمعي لا أرغب في أن أكون دخيلة. أعلم أنك ونيكولا تواجهان بعض المشاكل، لذا عليكما معالجتها بطريقتكما الخاصة».

لبرهة ما، سكتت ليزا ثم قالت بصوت منخفض: «أنت محقة. آسفة يا كيت. لم يكن ينبغي عليّ توريطك».

فقالت كيت وهي ممزقة بين السخط والعطف الأخوي: «ما المشكلة بينكما؟».

قامت ليزا بإشارة صغيرة لإسكاتها، وبعد فترة قصيرة تحججت بالتعب وبرغبتها في الخلود إلى الفراش. لذا توجهت كيت مجدداً إلى الغرفة بمفردها.

وفي هدأة الليل المشبّع بالعطور وحميميّته، راحت تتخيل ذلك الغريب.

تذكرت طوله الفارع، وصوته القوي الذي نفذ إلى أعماق قلبها. أحست كأنها تعرف ذلك الصوت تماماً. كان هادئاً ومتماسكاً ولكن تماسكه

يخفي... وتسارعت أنفاسها.

بدا هادئاً جداً خلال حديثه، قبل أن يناديه زملاؤه للعودة به إلى هالات الفندق الباهرة. لكن صدره الذي ضمها إليه، كان دفئاً، ولم يكن سهلاً عليه إطلاق سراحها.

جمدت كيت في مكانها وهي ترتجف: «لِمَ كنت أفكر بهذا الشكل؟ هل أسندت إليه إذاً دور الحبيب؟».

لم يعجبها ما جنحت إليه مخيلتها، فهي تعلم مدى خطورة هذه التصورات. لذا تمسكت بالمنطق وقالت لنفسها ساخرة بأنها هي الملامة الوحيدة على الأحلام التي قد تراودها ليلاً. أجبرت نفسها على كبح جماح مخيلتها إذ لا يمكنها الشعور بالوهن لمجرد وجودها في جنّة استوائية. هل المكان هو السبب؟

أجابت كيت في سرها: «لا تبالي بالجنّة لأنها قد تكون جزيرة أوهام. تمسكي بالمنطق بحق الله».

في تلك الليلة، جافاها النوم حتى وقت متأخر جداً.

* * *

في هذه الأثناء كان فيليب جالساً إلى مائدة العشاء قرب وزير التنمية الذي كانت جعبته مليئة بالقصص المسلّية.

حاول فيليب التركيز وقد نجح في ذلك، لكن عقله كان يجنح نحو تلك الفتاة بصوتها الأبحّ وجسدها الممشوق الناعم وبهجتها العارمة في المياه. تذكر عناقه لها فتململ في مكانه، وإذا بالوزير يضحك بشكل متوقّع، بدا وكأنه يريد من فيليب مجاراته في شيء قاله. كان عليه فعلاً استعادة زمام الأمور في هذه الأمسية، لذا قال بلطفه المعتاد: «آسف، معالي الوزير. فاتني ما قلته للتوّ».

جمد الوزير برهة، فثمة شيء مريب في لياقة فيليب الهادئة. وتجاهل

www.elromancia.com

النكتة التي كان يخبرها وقال بحدة: «أنت تعي تماماً أن كل ذلك عديم الفائدة، فمن دون «رفيق» سيكون الإتفاق مجرد حبر على ورق».

أومأ فيليب موافقاً، وقال متداركاً غضب الوزير أمامه: «أنت مصيب».

فقال الوزير بتحدٍ: «حسناً، ما الذي ستقوم به؟».

منحه فيليب واحدة من ابتساماته الديبلوماسية التي لا تخطىء هدفها، فأذعن الوزير، إلا أن تلك الحادثة حملت فيليب على التركيز لما تبقى من الأمسية.

لم يتسنّ له التفكير مجدداً بتلك الفتاة إلا بعد تبادل الأنخاب وعبارات المجاملة، وحتى بعد أن خلد الموفدون إلى الفراش بعد ليلة حافلة، وجلس هو مع فريقه إلى إحدى الموائد. استلقى فيليب على كرسيه وأراح كتفيه، وخصوصاً عضلات ظهره ورقبته المتشنجة. سأل معاونه الخاص: «هل تعلم من يقطن هنا غيرنا؟».

ـ لقد أعطيتك اللائحة لدى وصولنا. هل تريدني الاستقصاء عن أي جديد طرأ عليها؟ وفقاً لمعلوماتي، قدم وفد من المحافظين على البيئة ومجموعة من مكاتب الإغاثة وبعض الصحافيين طبعاً، إلا أنهم لن يمكثوا طويلاً... سيعودون فقط لحضور ختام المؤتمر الصحفي بالطبع.

وأومأ فيليب: إذاً، من تكون تلك الشقراء الطويلة، يا فرناندو؟ أهي من الصليب الأحمر؟ أو مخلوق خطر مهدد بالإنقراض؟ هي لا تعرف سبب ذلك الوميض الفوسفوري في المياه، لذا فلا يمكن أن تكون من أنصار البيئة.

كان يتحدّث إلى نفسه، فتبادل فرناندو ومعاونه وحارسه الشخصي النظرات فتوقف عن العبث بأوراقه.

تباً! لم يكن يجدر به تذكر الفتاة.

رفع حاجبه قليلاً ثم نهض معلناً: «حسناً، لدينا عمل لإنجازه. سأقوم

بنزهة على طول الشاطىء قبل أن أعود».

واستقام الحارس الشخصي في وقفته أيضاً، لكن فيليب هزّ رأسه: «وحدي على ما أظن».

وأجاب الحارس الذي كان قد خضع لتدريبات عالية الأداء: «لا يجب عليك التنزه وحيداً حتى على هذه الجزيرة، فللثوار مناصرون في كل مكان وقد يسددون ضربة قاضية باختطافك.

فقال فيليب: «وماذا عن كل تلك الكاميرات الخفية المزروعة على طول الشاطىء؟».

هز الحارس رأسه: «يحجب أحدهم الأضواء من الداخل، فيبدو الأمر حادثاً، وهكذا يدخل رفيق ورجاله في قوارب ويأخذون من يحلو لهم، فلا ينيرون أضواء ولا يديرون محركاً حتى يعودوا إلى البحر».

ورأى الحارس تجهُّم فيليب فأساء فهم موقفه، وقال له مطمئناً: «ستكون بخير طالما تبقى قريباً من الفندق».

ثم أضاف بنبرة تشجيع: «كما أنني سأبقى قريباً منك، على مرمى السمع».

وصرّ فيليب على أسنانه بصمت، إذ لم يعد باستطاعته الاستعلام عن الفتاة، والآن، لم يعد بإمكانه حتى التنزه حيث يمكن العثور عليها! على الأقل ليس من دون مراقبة. ألا يحق له التمتع بالخصوصية إطلاقاً؟ تذكر الملف الذي قرأه الأسبوع الماضي، كما تذكر الرجال الأشداء الذين صادفهم مع «رفيق» في الأدغال. أنبأه منطقه المحترف بصواب رأي معاونيه، ففي هذا الوقت، تعتمد حياة الكثيرين على تصرفه المهني المحترف. فأومأ مكرهاً: «حسناً لن أقوم بجولة بمفردي. يمكنك مرافقتي إلى الغرفة لأستطيع بعدها تحضير ورقة العمل للغد. فرناندو هل يمكنك تقديم تقرير مفصّل عن اجتماعنا الأخير قبل خلودك للنوم؟».

أجاب فرناندو بدون تردد: «نعم».

كان فرناندو يدرك أن فيليب لن يخلد للنوم قبل ساعات الفجر الأولى محاولاً استخلاص النتائج.

كان الوقت مبكراً عندما نهضت كيت بعدما قضّت الأحلام مضجعها. استدارت قلقة وهي تدفع الغطاء السميك بعيداً عنها. تخيّلت، وهي شبه نائمة، بأنها كانت في البحر وبأن إله البحر قد ظهر على الشاطىء وحملها بعيداً. لم تحفل للأمر فلقد كانت راغبة بالذهاب. لقد أحبت ذلك الشعور بالثقة العمياء الذي راودها، فغاصت معه في المياه وهي تبتسم، إلا أن قدميها علقتا بعشبة بحرية فلم تستطع تحرير نفسها للحاق به. لم يلاحظ إله البحر ما اعتراها، فصرخ بها لتتبعه إلى البحر ثم استدار تاركاً إياها. نادته قائلة: «لا تذهب».

إلا أن صوتها ضاع بسبب المسافة الفاصلة بينهما. حاولت أن تناديه مجدداً بصوت أعلى: «لا تتركني»، لكنها استفاقت واستوت في جلستها وهي تتنفس بصعوبة. لا يمكنها أن تقول ذلك. لا تستطيع حتى ولو في أحلامها. لقد تفوّهت بهذا الكلام أمام جوني، ثم قطعت على نفسها عهداً بعدم قول ذلك مجدداً.

حاولت الخروج من السرير، فوجدت أن ساقيها عاجزتان. كادت تقع أرضاً لولا أنها تمسّكت بالفراش هامسة: رائع! لقد بدأت معاناتي... إنها قصتي المعتادة. ولكنها ما لبثت أن شعرت بتحسن فنهضت، ثم استحمت وارتدت ملابسها ثم اتصلت بليزا فأجاب صهرها قائلاً: «مسرور لوجودك هنا كيت، وآسف لعدم تمكني من اللحاق بكما ثانية الأمس».

- لا بأس. لقد شرحت لي ليزا أنك مشغول.

وبدا صوته جافاً: «حقاً؟ حسناً، تعالي لتناول الفطور معنا الآن إلا إذا كنت تودين السباحة أولاً».

فردت كيت قائلة: «كلا، يمكن للسباحة أن تنتظر. سأصعد إليكما الآن».

- عظيم. سأطلب فطوراً لثلاثة.

ولكنها عندما أدركتهما، كان صهرها المضياف في طريقه إلى الخارج، فتمنت كيت بمجرد النظر إلى ليزا لو أنها لم تأتِ، إذ كان من الواضح أنهما قد تجادلا للتو. بدت عينا ليزا منتفختين فيما عقد نيكولا حاجبيه غضباً وقال باقتضاب: «أهلاً، كيت. أراك لاحقاً، ليزا هذا هو اليوم الأخير للمؤتمر، أعدك».

هزت ليزا كتفيها، ففكرت كيت بأنها لم تر من قبل ثوباً أقل جاذبية من الذي ترتديه شقيقتها، التي علقت على كلام زوجها: «افعل ما يحلو لك ولا تتدخل في شؤوني».

تردد نيكولا ثم انحنى مقبلاً زوجته، إلا أن ليزا أدارت رأسها بسرعة فائقة فوقعت قبلته على وجنتها. استقام وأضاف قائلاً: «أراك في المساء».

لم تحب ليزا، بل جلست تحدّق بالبحر، فيما خطا نيكولا خارجاً، فغاص قلب كيت. تخلت ليزا عن نظرتها الشرسة واستلقت في كرسيها الهزاز مغمضة العينين لبرهة. تساءلت كيت ما إذا كانت مريضة بالفعل إذ بدت شاحبة جداً وما لبثت ليزا أن قالت: «هذا ما يقوله كل صباح ويعود كل مساء ليقول: أمهليني يا ليزا يوماً آخر».

تململت كيت بانزعاج من صهرها، إلا أنها كانت تحبه، فقالت: «حسناً، اعتقد أن المؤتمر مهم بالنسبة إليه».

انفجرت ضحكة ليزا، وفتحت عينيها المبللتين بالدموع: «أكثر اهمية من زوجته؟».

ارتأت كيت عدم الإجابة، فأجابت ليزا نفسها: «أعلم، أعلم. ثمة أزمة بيئية هنا، وإذا كان يعتقد بأن هناك مجالاً للقيام بشيء فعليه المحاولة، ولكن... أشعر بالوحدة».

وفكرت كيت فجأة بأنها ربما تكون المرة الأولى التي تشعر فيها ليزا بالوحدة في حياتها، مع أنها تستطيع الحصول على أي رجل ترغب فيه،

كان فرناندو يدرك أن فيليب لن يخلد للنوم قبل ساعات الفجر الأولى محاولاً استخلاص النتائج.

كان الوقت مبكراً عندما نهضت كيت بعدما قضّت الأحلام مضجعها. استدارت قلقة وهي تدفع الغطاء السميك بعيداً عنها. تخيّلت، وهي شبه نائمة، بأنها كانت في البحر وبأن إله البحر قد ظهر على الشاطىء وحملها بعيداً. لم تحفل للأمر فلقد كانت راغبة بالذهاب. لقد أحبت ذلك الشعور بالثقة العمياء الذي راودها، فغاصت معه في المياه وهي تبتسم، إلا أن قدميها علقتا بعشبة بحرية فلم تستطع تحرير نفسها للحاق به. لم يلاحظ إله البحر ما اعتراها، فصرخ بها لتتبعه إلى البحر ثم استدار تاركاً إياها. نادته قائلة: «لا تذهب».

إلا أن صوتها ضاع بسبب المسافة الفاصلة بينهما. حاولت أن تناديه مجدداً بصوت أعلى: «لا تتركني»، لكنها استفاقت واستوت في جلستها وهي تتنفس بصعوبة. لا يمكنها أن تقول ذلك. لا تستطيع حتى ولو في أحلامها. لقد تفوّهت بهذا الكلام أمام جوني، ثم قطعت على نفسها عهداً بعدم قول ذلك مجدداً.

حاولت الخروج من السرير، فوجدت أن ساقيها عاجزتان. كادت تقع أرضاً لولا أنها تمسّكت بالفراش هامسة: رائع! لقد بدأت معاناتي... إنها قصتي المعتادة. ولكنها ما لبثت أن شعرت بتحسن فنهضت، ثم استحمت وارتدت ملابسها ثم اتصلت بليزا فأجاب صهرها قائلاً: «مسرور لوجودك هنا كيت، وآسف لعدم تمكني من اللحاق بكما ثانية الأمس».

- لا بأس. لقد شرحت لي ليزا أنك مشغول.

وبدا صوته جافاً: «حقاً؟ حسناً، تعالي لتناول الفطور معنا الآن إلا إذا كنت تودين السباحة أولاً».

فردت كيت قائلة: «كلا، يمكن للسباحة أن تنتظر. سأصعد إليكما الآن».

- عظيم. سأطلب فطوراً لثلاثة.

ولكنها عندما أدركتهما، كان صهرها المضياف في طريقه إلى الخارج، فتمنت كيت بمجرد النظر إلى ليزا لو أنها لم تأتِ، إذ كان من الواضح أنهما قد تجادلا للتو. بدت عينا ليزا منتفختين فيما عقد نيكولا حاجبيه غضباً وقال باقتضاب: «أهلاً، كيت. أراك لاحقاً، ليزا هذا هو اليوم الأخير للمؤتمر، أعدك».

هزت ليزا كتفيها، ففكرت كيت بأنها لم تر من قبل ثوباً أقل جاذبية من الذي ترتديه شقيقتها، التي علقت على كلام زوجها: «افعل ما يحلو لك ولا تتدخل في شؤوني».

تردد نيكولا ثم انحنى مقبلاً زوجته، إلا أن ليزا أدارت رأسها بسرعة فائقة فوقعت قبلته على وجنتها. استقام وأضاف قائلاً: «أراك في المساء».

لم تحب ليزا، بل جلست تحدّق بالبحر، فيما خطا نيكولا خارجاً، فغاص قلب كيت. تخلت ليزا عن نظرتها الشرسة واستلقت في كرسيها الهزاز مغمضة العينين لبرهة. تساءلت كيت ما إذا كانت مريضة بالفعل إذ بدت شاحبة جداً وما لبثت ليزا أن قالت: «هذا ما يقوله كل صباح ويعود كل مساء ليقول: أمهليني يا ليزا يوماً آخر».

تململت كيت بانزعاج من صهرها، إلا أنها كانت تحبه، فقالت: «حسناً، اعتقد أن المؤتمر مهم بالنسبة إليه».

انفجرت ضحكة ليزا، وفتحت عينيها المبللتين بالدموع: «أكثر اهمية من زوجته؟».

ارتأت كيت عدم الإجابة، فأجابت ليزا نفسها: «أعلم، أعلم. ثمة أزمة بيئية هنا، وإذا كان يعتقد بأن هناك مجالاً للقيام بشيء فعليه المحاولة، ولكن... أشعر بالوحدة».

وفكرت كيت فجأة بأنها ربما تكون المرة الأولى التي تشعر فيها ليزا بالوحدة في حياتها، مع أنها تستطيع الحصول على أي رجل ترغب فيه،

وأدركت بأنها ربما تعرف ـ وللمرة الأولى ـ أكثر من ليزا حول هذه المسألة.

قالت ببطء: «عليك أن تتحدثي معه بشأن ذلك، فأنت تدركين بأن العناد لن يوصلك إلى حل».

تجاهلت ليزا كلامها وصبت كوبين من العصير لكليهما، ثم استلقت في الكرسي الهزاز معلنة: «هذا المكان هو السبب».

فاحتجّت كيت متفاجئة: «ولكنه جميل».

وضاق فم ليزا: «بالتحديد، إنه جميل ومليء بكل مستلزمات شهر العسل السعيد. إنه يحثك على ذلك حتى عندما لا تكونين في مزاج... سعيد».

واتسعت عينا كيت الخضراوان فقالت وهي تنظر إلى أختها: «آه، ليزا».

قالت ليزا محذرة: «لا تتعاطفي معي. أخبريني عن منافع هذا المكان، ولا تدعيني أبكي بحق السماء».

قالت كيت: «حسناً، أنظري إلى جدران الأبنية المتوهجة، وإلى المناظر الرائعة التي تحيط بك كما أنك تكتسبين سمرة جميلة. سيكون نهاراً رائعاً».

وأدارت وجهها باتجاه نسيم البحر العليل، فداعبت ضفائر شعرها الذهبي وجنتها بنعومة فائقة. كان النسيم محملاً بشذا الزهور، فتمطت كيت بتلذذ وتابعت: «كما أن الأمسيات جميلة إلى حد يستحيل عليّ تصديقه. ليلة امس عندما قمت بنزهة، كانت السماء رائعة. لم يسبق لي أن رأيت هذا القدر من النجوم».

واصطكت أسنان ليزا، فبدت كمحارب خطر على وشك الانقضاض على عدوّه فقالت: «لا تكلميني عن النجوم».

عبست كيت فجأة: «ماذا لديك ضد النجوم؟».

اختفت النظرة المرعبة عن وجه ليزا الجميل، وهزت رأسها فتماوج شعرها المسرّح بعناية، وقالت وهي شبه مبتسمة: «آه، لا يبدو ممتعاً النظر

إليها بمفردي كما اعتقد. أنت محقة طبعاً. لقد وعدني نيكولا و... حسناً، أظن بأنني لست زوجة مطيعة تنتظر زوجها المنشغل بأمور هامة».

كادت كيت تختنق، إلا أنها حافظت على ثبات نظرتها، وأجابت بصوت متحشرج: «كلا».

ضاقت عينا ليزا: «أنت تسخرين مني».

ـ من؟ أنا؟ لا أجرؤ.

هزت ليزا رأسها بلا مبالاة، كما لو أنها تحاول أن تطرد مزاجها العكر: «بلى، قد تفعلين».

ثم ضحكت بوقاحة: «وأنت مصيبة أيضاً، فهذه زيارتك الأولى إلى فردوس إستوائي، وجل ما أفعله هو إفساد ذلك بالنحيب! اضحكي قدر ما تشائين!».

قالت كيت مؤاسية: «قال نيكولا بأن اجتماعاته ستنتهي اليوم».

ـ كذبة متقنة.

قالت كيت: «كنت أتكلم أمس مع أحد عمال الحديقة. فأخبرني بأن هذا المكان معد للراغبين باحتفالات زفاف استوائية فخمة، ثم اندلعت الحرب واقتصر رواد هذا الفندق على رجال في بزات رسمية. لذا فهم يتفاءلون بالخير في كل مرة يرون فيها امرأة».

قالت ليزا وقد خمدت ثورتها: «آه، لم افكر بذلك. يا للمساكين!».

وعبست كيت: «إنهم يائسون. لديهم مجموعات من رجال الأعمال الذي يطلبون منهم وقف الموسيقى ساعة العشاء ليتمكنوا من الكلام».

استوعبت ليزا المسألة، وعادت إليها ابتسامتها الشقية المعتادة وهي تضيف: «إنه عالم المصارف كما اعتقد».

فقالت كيت مؤازرة: «هناك مفاوض رئيسي للسلام، لم يتنبه حتى لوجود راقصة أمامه».

وضحكت ليزا بصوت عال لكلامها، إلا أن وجهها تجهم فجأة، وأردفت بنبرة قاسية: «أراهن على أن الوفود البيئية لا تنتبه لذلك أيضاً، لا أستطيع أن أقول لك منذ متى لم يلمسني نيكولا».

- ماذا؟ ولم؟

ثم تابعت بأسى: «لقد توقفنا عن الكلام معاً، حتى قبل أن نتوقف عن النوم معاً. قولي لي، كيف نعالج الوضع؟».

واستسلمت كيت إذ لم يكن هناك ما تقوله.

في تلك الأثناء، كان فيليب يقطع برفقة معاونه نصف الجزيرة جرياً في جولته الصباحية، مبرراً ذلك أنه أمضى وقتاً طويلاً بالأمس في قاعة المؤتمرات، وقال: «أحتاج لأن أتنشق الهواء النقي».

وهذا ما قام به، ولكنه كان يعلم في قرارة نفسه، أنه كان يتمنى رؤية تلك الفتاة، إلا أن ذلك لم يحصل. قطع مسافة طويلة ولم يصادف أن رآها، ولم يعد بوسعه فعل شيء حيال ذلك. عاد إلى اجتماعاته محاولاً إخراجها من رأسه، وعندها نظر إلى الخارج، فرآها تركض على طول الممر الصخري الذي يصل المنحدرات بالشاطىء. إنه واثق من هويتها. كانت ترتدي هذا الصباح، ثياباً قطنية. لم يكن شعرها ملتصقاً برأسها، بل كان في الواقع ذهبياً أسطورياً، كما في كتب الأميرات القديمة التي قرأها في منزله في آشبرو. وابتسم فيليب لهذه الفكرة.

كانت خصلات شعرها تتماوج بألوان قزحية فيما كانت تقفز. لقد كانت هي، حوريته المائية التي التقاها في تلك الأمسية المقمرة.

لم يكن يفتش عنها، إلا أن الصدفة حملته على أخذ فنجان قهوته نحو النوافذ المشرعة في كل مرة يعلّق الاجتماع لاستراحة قصيرة كما يحلو لفرناندو تسميتها. من تراها تكون؟

لم تكن حتماً مرتبطة بواحد من هؤلاء المفاوضين، فهم في متوسط أعمارهم كحاله، فهو مثلاً كان يبلغ الخامسة والثلاثين ويشعر بأنه قديم

كالعالم. وفي المقابل، كانت فتاته الشقراء فتية في ربيع عمرها ومليئة بالشقاوة.

فكر فيليب.. إن الفتاة تناسب منزله القديم في آشبرو، ببشرتها اللؤلؤية الشاحبة وشعرها الأشقر الذهبي، وكأنها مصمّمة خصيصاً لتناسب الغرفة الملوكية بسريرها ذي الأعمدة الأربعة، والمصنوع من خشب الكرز، والمزين بغطاء مخملي أخضر يتماشى مع الستائر الذهبية التي تحبس بين أرجاء الغرفة رائحة اللافندر، وخصوصاً في فترات بعد الظهر خلال فصل الصيف.

قطع حبل أفكاره بسرعة إذ كان يتنفس بصعوبة. ولبرهة، لم يعد بوسعه رؤية أي شيء عدا انعكاس الضوء على شعر الفتاة المتطاير، وكان منظر البحر وراء الفتاة رائعاً. طرفت عيناه، واستدار متعمداً سؤال النادل الذي يحمل ابريق القهوة عن هويتها. حاول فتح فمه لمناداة الرجل، فغمره ظل قاتم. جمد فيليب، ثم وضع قهوته جانباً بحذر. استدار حول نفسه، ويبدو أن أحداً لم يكن يلاحظه هذه المرة أيضاً. كانت تلك هي المرة الرابعة التي يحس فيها بغشاوة فوق عينيه. حصل ذلك لفترة وجيزة، ثم عاد بصره في غضون دقيقة إلى سابق عهده. كان ذلك تعقيداً لم يكن بحاجة إليه، إذ على جميع المفاوضين أن يكونوا على ثقة تامة بقدرته على الخروج بنتيجة ناجحة، وهذا لن يتم إذا ما ثارت شكوك حول سلامته، لذا، حري به أن يمنع نفسه عن التلهّي بشعر أشقر متطاير، فهذا ليس مناسباً لمفاوض سلام، ولا حتى في أكثر أحلامه جنوناً. كانت الفتاة مدعاة لهو بلا شك، وهو لا يستطيع اللهو وكما أنه لا يستطيع أن يخيب آمال آلاف من الناس، الذين يتوقعون منه التوصل إلى إتفاق يرضي الجميع.

شق طريقه بحذر عائداً إلى الطاولة، وطلب انعقاد الإجتماع، وكما جرت العادة، صفا نظره في غضون دقائق، ولم يلاحظ أحد حصول أي سوء، كما أن الفرصة التي أتيحت له لسؤال الخادم عن هويتها قد مرت.

لقد أحس حتى بعد مرور تلك الأشهر والسنوات بأن هذا هو أسوأ عقاب أنزله على نفسه.

راحت كيت تجري على طول الشاطىء من دون أن تتنبه لأحد. كانت خطواتها واثقة وكانت تشعر بتحسن كبير، وبدا لها أن الشمس تبتسم لها، فيما يداعب هواء البحر المنعش بشرتها.

وجدت أنه من المستحيل عليها المحافظة على تماسكها في هذا المكان الخلاب، وتفاجأت لقدرة ليزا على مقاومة السباحة على الشاطىء المعزول، ولكن ليزا أوضحت بأنها لا تشعر بالعافية لذا ارتأت كيت عدم التدخل.

كانت كيت تعتقد بأن المرايا وعيون الآخرين تذكرها بكل ما ترغب بنسيانه، لذا ارتأت أن تتجنب الإثنين معاً. غير أن ما أثار استغرابها هو أنها لم تحاول تجنب ذلك الغريب الأسمر الذي التقته قرب البحيرة مساء أمس. فكرت كيت بذلك وهي تركل الرمال الحريرية بأصابع قدميها الحافيتين.

جالت بنظرها على الشاطىء الفارغ، حيث تتمايل طيور النورس بكسل في السماء المتوهجة. ماذا لو لحقها حتى هذا الشاطىء المهجور؟ ألم تكن لتخاف منه حينها؟ وارتجفت قليلاً ولكن ليس من الخوف بل من الحذر.

فكرت كيت أنه من الجيد أن ذلك الرجل لم يحاول اللحاق بها إلى شاطئها الخاص، لأنه عندما عانقها استجابت كما لم تفعل حتى مع جوني، وهو الفتى الأكثر وسامة في الصف.

فكّرت للحظة لو أن بإمكانها أن تحب وتكون محبوبة. لكن ما أن لمعت الفكرة في رأسها حتى تسارعت ضربات قلبها وأحسّت بأنها غير قادرة على المغامرة من جديد. فغاصت مجدداً في المياه.

كانت الفكرة تتردد في رأسها رغم أنها شعرت بأن ما تفكر به هو نوع

من الخيانة لشقيقتها المنهارة. إلا أن كيت ظلت تشعر بالفرح يملأ نفسها، فراحت تقفز فرحة فوق الرمال الناعمة، مفكرة باغتباط: إنه يريدني أنا... إنه يرغب بي حقاً!.

***

٣ ـ فاكهة الجنّة

أمضت كيت نهارها جذلى.

لقد عانقها مجهول تحت ضوء القمر، وها هي تحسّ أنها ملكة العالم! هذا جنون... فالرجل لم ينظر حتى إلى وجهها مباشرة.

ولكنه يريدني! قالت كيت في سرّها. غمرتها البهجة وهي تقفز في المياه. وما لبثت حرارة الشمس أن اشتدت تدريجياً فاستحال عليها السباحة أو حتى الجلوس في الظل لذلك فضّلت أن تقوم باستكشاف إحدى تلك الممرّات الساحلية المؤدية إلى الغابات الإستوائية مستعينة بالخريطة الموجودة في كوخها. حاولت إقناع ليزا بالمجيء معها، إلا أن هذه الأخيرة أعلنت أنها تود الاستحمام ثم الجلوس لتقرأ على شرفتها، لذا انطلقت كيت بمفردها... ثم غدت تلك الرحلات نموذجاً اتبعته في الأيام القليلة التالية: تتناول الفطور مع شقيقتها، تصادف نيكولا وهي في الطريق إلى كوخهما. ثم تسبح قليلاً بعد تناول الفطور، وقبل أن تشتد حرارة الشمس. وكانت ليزا تنضم أحياناً إليها، ثم تذهب كيت في رحلتها الإستكشافية بمفردها وتعود ليزا إلى أحزانها. خلال رحلاتها تلك، لم تكن كيت تلتقي أحداً سوى العمال في الفندق، ومع ذلك حاولت إقناع نفسها بأنها ليست خائبة الأمل.

لم يظهر نيكولا مجدداً حتى على العشاء، وقد بدا وجه ليزا منقبضاً. في

اليوم الرابع، وفيما كانت كيت تشق طريقها صعوداً عبر التلال الرطبة المؤدية إلى كوخ ليزا ونيكولا، سمعت أصواتاً مرتفعة، وتناهى إليها صوت صهرها الذي بدا على شفير الانفجار قائلاً: «تستطيع كيت إيجاد الكثير لتسلية نفسها في كورال كوف، لم لا تفعلين مثلها بحق الله؟».

جاء صوت ليزا هادئاً إنما واضحاً: «ربما لأن كيت تمتلك تطلعات أقل».

لم تعد كيت تستطيع الاحتمال فتوجهت نحوهما قائلة بمرح: «وأخيراً تتناولان الفطور معاً. كم هذا جميل!».

قال نيكولا باقتضاب: «لن أتوقف».

ـ ولكن...

ـ سأتناول الفطور مع المفاوض لدى الأمم المتحدة.

أدارت ليزا كتفها وتطلعت نحو البحر. رمقها نيكولا بنظرة غاضبة، ثم تجاهلها ليقول لكيت: «هذا الرجل هو مفاوض فعلي. إنه لقاء مصيري نوعاً ما. يبدو أننا سنجري صفقة متبادلة. السلام وبرنامج الإعانات الإنسانية والمحافظة على البيئة أمور تندرج كلّها في إطار واحد، وتحتاج إلى دعم مالي. سنلتقي هذا الصباح لتبادل الآراء».

لم تتفوّه ليز بشيء وفهمت كيت تلك النظرة الغاضبة، فقالت بيأس: «ليزا».

أدارت ليزا كتفها ولكن نيكولا لم يتكلّف حتى عناء إلقاء نظرة ثانية عليها، وسأل كيت بالتحديد: «إذاً، ماذا ستفعلين اليوم يا كيت؟».

راجعت كيت تفكيرها باحثة عن موضوع لا يثير التنافر، فقالت وقد خطرت لها فكرة: «التقيت برجل أخبرني عن الضوء الفوسفوري كما أنه اخبرني عن تلك الطيور الزرقاء أيضاً. وأظنني سأقصد المكتبة الموجودة في بهو الفندق، لأرى ما يمكن أن اجده حول هذا الموضوع».

انفجرت ليزا بالضحك قائلة: «أترين!. هذا كل ما يستطيع المرء إيجاده

هنا».

تجاهل نيكولا تعليق زوجته وقال بإيجاز: «لن يجديك الفندق نفعاً. إذا كنت مهتمة بالأمر، يجدر بك اللجوء إلى الإنترنت فالكمبيوتر النقّال موجود في الداخل».

فأكملت ليزا موجهة كلامها العذب إلى المحيط: «هذا صحيح فأنا أغفو على صوته وأستيقظ على طنينه كل يوم».

بدا على كيت الإنزعاج، إلا أن نيكولا لم يكن ينظر إليها بل كان يحدّق في تقاسيم زوجته: «آسف لإزعاجك. ربما علي الاستعلام عما إذا كان بمقدورهم إعطائي غرفة أخرى».

صرت ليزا على أسنانها ولم تنظر إليه بل اكتفت بالقول: «جيد».

وبدا على نيكولا الذهول. فودت كيت لو تصرخ في وجهه قائلة: لا تتحداها فهي لا تتراجع أبداً.

غير أنهما كانا متزوجين وإذا لم يكن نيكولا مدركاً لأطباع زوجته، فعليه أن يتعرف عليها بسرعة.

التقط نيكولاي بعض الأوراق عن الطاولة واتجه نحو الدرج متجاهلاً ليزا: «إلى اللقاء، كيت، نهاراً ممتعاً».

فردت بوهن: «إلى اللقاء».

نزل السلالم دون إلقاء نظرة إلى الوراء. وفور ذهابه، أرخت ليزا كتفيها واستدارت وعيناها الزرقاوان ترسلان شرراً وأعلنت: «إذا انتقل إلى غرفة أخرى، سأعود على متن أول طائرة».

قالت كيت مطمئنة إياها: «أنا واثقة من أنه لن يفعل. إنه غاضب فقط لأنك تتحدّينه. كوني منصفة».

قالت ليزا: «أنا لست منصفة؟ الرجال! كم أصبت حين قررت عدم التعاطي معهم. جيد، اجلسي وتناولي الفطور ثم سأريك كيفية استعمال الكمبيوتر النقّال».

وتنبهت كيت للأمر: «ولكنني لست معتادة فعلاً على استعمال الإنترنت وقد أفسده».

رمقتها ليزا بإيماءة مفاجئة، وابتسمت ابتسامة عريضة غير متوقعة قائلة: «وكم سيكلفني ذلك؟».

ضحكت كيت بارتياح فربما ستجري الأمور على ما يرام لاحقاً. إذا كان في مقدور ليزا الابتسام، فهذا يعني بأن الوضع ليس ميؤوساً منه.

* * *

- يبدو الوضع جيداً.

قال فيليب فيما كانت الغرفة شاغرة ذلك المساء: «يبدو أن الصنّارة قد غرزت، وكل ما علينا فعله هو حملهم على النقاش دون أن يتقاتلوا، وبعدها يمكن إبرام المعاهدة».

علّق الممثل المحليّ للمنظمة، وهو رجل فرنسي خبير بالقول: «أهنئك، فأنا لم أرَ قط غانتالان يوافق على أي ترتيب بهذه السرعة».

وابتسم فيليب: «أستطيع القول بأن السبب يعود إلى غياب عدوه اللدود وليس لي. عندما يظهر رفيق، سيسعى كلاهما إلى إثبات موقفهما. صحيح أن موقفنا جيد إلا أننا لم ننته بعد. فطالما هما لا يزالان يمتلكان القوة، يمكن للمحادثات أن تُعلّق أو يمكن توقُّع الأسوأ».

وبدت امارات الجدية على الرجل الفرنسي: «أتظن بأن رفيق سيظهر لاحقاً؟ لم يفعل شيئاً مماثلاً من قبل».

حافظ فيليب على تعبيره الحيادي الحذر، فهو لم يعترف لأحد بأنه اجرى محادثات مع زعيم الثورة فالجميع يعتقد بأن الأسبوع الذي قضاه متجولاً في الغابات، كان رحلة استجمام، قام بها قبل بدء المحادثات.

قال فيليب مموّهاً: «من يعلم؟».

فتش بين أوراقه بسرعة خبير، وناول رزمة إلى معاونه قائلاً: «هلا مزّقتها، فرناندو؟ وتأكد من أن تحصل على أوراق المترجمين قبل أن يبلغوا

غرفهم، ومزق تلك أيضاً».

رفع الرجل الفرنسي حاجبيه: «أنت متطلّب».

وابتسم فيليب: «لطالما سمعت هذا الوصف، كما أنني لُقبت أيضاً بالأرستقراطي البارد».

وافق الرجل الفرنسي بجفاف: «ألسنا كلّنا كذلك؟ إلا أنك بدوت حريصاً على استمرار المفاوضات طيلة النهار».

فقال فيليب: «تكمن المسألة في الإعلان الصريح عن استعدادنا للغوص في كل التفاصيل الدقيقة، وبأننا جاهزين للمكوث هناك طوال الليل إذا أمكن. فعندما يشعرون بالجوع، يبدأون بتقديم التنازلات».

وضع غطاء القلم في مكانه وعلّقه في جيب سترته الداخلي، فيما جمع الرجل الفرنسي أوراقه بتمهل قائلاً: «وماذا ستفعل عندما لا يذعنون؟».

رد فيليب ببرود: «أنتظر مهما اقتضت الضرورة».

- أليس هناك وقت محدّد؟ أيام؟ أسابيع؟

- لن يصل الأمر إلى هذا الحد. فهناك مهمّات تنتظرهم؛ رجال يأتمرون بأمرهم وزوجات يترقبنهم.

وسأل الرجل الفرنسي بحشرية: «وأنت لا؟».

لقد تناهى إلى مسمعه الكثير من الأخبار حول فيليب هاردستي. رجل مجرد من العواطف الإنسانية، مدمن على العمل، نابغة على الأرجح. لكنه لم يسمع شيئاً عن حياة ذاك الرجل الخاصة. لقد بدأ الآن يتساءل عما إذا كان للرجل حياة خاصة في الأساس!

أجاب فيليب بخفة: «لا زوجة، ولا رجال».

ما هو سر هذا المكان؟ لم يكن يبوح بمثل هذه الأمور في السابق، فحياة الوحدة لم تبدُ له شاقة من قبل.

وأكمل فيليب: «لقد بعت حياتي منذ فترة طويلة، ولم أضطر مرّة في حياتي لقطع اجتماع، والجميع يعلم ذلك».

قال الرجل الفرنسي وقد فوجيء بالرّد: «هذه مسألة قابلة للتغيّر».

ومنحه فيليب إيماءة جدية مفاجئة: «سأعمل على ذلك».

وجد الرجل الفرنسي نفسه يضحك لهول المفاجأة، فقال له فيليب: «تعال نتناول العصير. وأخبرني عن رأيك الحقيقي بمجريات اليوم وعن الأفخاخ المستعصية التي تنتظرنا في الغد».

فوجيء الرجل الفرنسي بهذه المودة التي لا تتفق مع الصورة التي كوّنها عن فيليب، فشكره.

قال فيليب لمعاونه: «وأنت ايضاً فرناندو. هناك مقهى في الأسفل قرب البحيرة وهكذا يمكننا تفادي الاحتفالات والراقصة الشرقية هناك».

تبادل فرناندو والرجل الفرنسي النظرات متنهدين، فهما لا يودان تحديداً تجنب الراقصة الشرقية الجميلة خاصة وهي ترتدي بذلة الرقص الفاتنة المزينة بالقطع النقدية الذهبية، ولكنهما وافقاه، فهو الرئيس في نهاية المطاف.

كان المقهى يقع بمحاذاة البحيرة. ووضعت الطاولات بين الأشجار لتوفير جوٍّ حميم. علّقت ليزا وقد بدت المرارة في نبرتها: «إنه مكان ملائم للعشاق».

فكرت كيت أنه كذلك بالفعل. كانت الأختان بانتظار نيكولا، فلقد اتصل بليزا منذ نصف ساعة مقترحاً عليها الفكرة إلا أن كيت قالت بانزعاج: «لا أظن فعلاً بأن علي البقاء هنا. أنا واثقة أنه لم يدعني للمجيء أيضاً».

وسألت ليزا دون أن تتوقع جواباً: «وكم من الوقت يظن بأنه بإمكاني أن أنتظر هنا بمفردي؟ هذا إذا ما افترضنا قدومه أصلاً. أعتقد بأن اجتماعاته لن تنتهي إلا عندما أذهب إليه أنا بنفسي».

لم تستطع كيت إضافة كلمة مقابل ذلك. بل اكتفت بالقول: «سأرحل فور وصوله».

فردّت ليزا دون اكتراث: «حسناً نادي النادل هناك، ودعينا نشرب واحداً من تلك الكوكتيلات الباردة».

إلا أن النادل حضر إلى مكانهما السري، فقالت له ليزا بخفة: «أحضر لنا مشروبين من الكوكتيل اللذيذ الذي تعدّه».

كانت تضحك مجدداً، فواجهتها الاجتماعية قد عادت إلى سابق عهدها وتمنت كيت لو أنها تستطيع أن تكون مثلها وتتمكن من إخفاء مشاعرها فلا تعلنها بوضوح للملأ. لم لا تستطيع التظاهر تماماً كليزا؟

لبى النادل الطلب على أحسن وجه، فعاد في غضون دقائق مع كأسين: أحدهما طويل يحوي سائلاً برتقالياً والآخر صغير يحوي سائلاً توركوازياً.

قالت ليزا وهي تأخذ الكأس البرتقالي: «إنه يشبه مشروباً أعرفه، ولكنني لا أملك فكرة عن محتوياته».

عبس النادل: «إنه مستخرج من قصب السكر الممزوج بعصير الجوافا».

فقالت كيت وهي تنظر إلى الكأس الآخر بحذر: «وماذا عن خلطة سمك القرش؟».

التمعت عيناه بتسلية، وقال بجدية: «خلاصة زهرة الأوركيديا المناسبة للحب».

ثم انسحب عابساً، فضحكت ليزا عالياً بصدق لا أثر فيه للإدعاء هذه المرة. واستدارت كيت نحوها بعينين حانقتين: «هل قصد ما أظن أنني فهمت؟».

قالت ليزا ضاحكة: «أعتقد ذلك. هذا المكان يحفزك على القيام بالخطوة الجريئة. وكأنه يدعوك إلى الزواج فيما يتكفل هو بالباقي».

ونظرت كيت إلى المشروب: «كفي عن التمتمة. اتعنين أنك أحضرت لي مشروباً مثيراً؟».

قالت ليزا بمرارة: «حسناً، لنقل بالتحديد إن نيكولا قد اشترى لك مشروباً مثيراً، فالليلة ستكون على حسابه».

قالت كيت بسخرية: «عظيم فهذا ما اريده تماماً».

إلا أن ليزا كانت تنظر في البطاقة الصغيرة التي أحضرها النادل مع مشروبيهما، وقالت بغرابة: «أنظري، لديهم خريطة للتنزه تحت ضوء القمر. لديهم كل ما يحتاجه العروسان المرتبكان».

وسألت كيت وقد اعتراها الفضول لهذا التصريح المفاجيء: «وهل كنت فعلاً مرتبكة؟».

لم تكن تظن بأن أختها قد ترتعب من شيء، إذ كانت ليزا مسؤولة عن نفسها منذ بلغت السابعة.

ـ آه، أجل طوال الوقت. في كل مرة يتركني نيكولا وحيدة ولو لبرهة، أموت خوفاً.

عضت كيت شفتها: «يبدو ذلك سبباً وجيهاً آخر للامتناع عن الزواج».

تنهدت ليزا. وقالت بصوت غريب: «نيكولا. لقد حضر في النهاية».

في الممر المحفوف بالأشجار، وقف رجل أسمر طويل ونظر عمداً إلى المقاعد المظللة بحثاً عن زوجته قبل أن يكمل سيره. تسنى لكيت الوقت الكافي للرحيل قبل اقترابه، إذ تناولت كأسها ونهضت معلنة: «واثقة من أنه أخطأ في المشروب. لا يمكن لأحد أن يدفع ثمن شامبو. سأعيده إلى المقصف».

قالت ليزا: «حسناً».

وخيل لكيت أنها لم تنتبه مطلقاً لما قالته لها. فقد كانت تنظر إلى نيكولا بإصرار، وقبعت في مكانها كفأرة منتظرة منه العثور عليها.

لم يع فيليب حتى أنه كان يحاول العثور على الفتاة. لقد أخرجها من رأسه لأربعة أيام، تقريباً، لكن ما إن رآها حتى أدرك بأنه كان ينتظرها.

فردّت ليزا دون اكتراث: «حسناً نادي النادل هناك، ودعينا نشرب واحداً من تلك الكوكتيلات الباردة».

إلا أن النادل حضر إلى مكانهما السري، فقالت له ليزا بخفة: «أحضر لنا مشروبين من الكوكتيل اللذيذ الذي تعدّه».

كانت تضحك مجدداً، فواجهتها الاجتماعية قد عادت إلى سابق عهدها وتمنت كيت لو أنها تستطيع أن تكون مثلها وتتمكن من إخفاء مشاعرها فلا تعلنها بوضوح للملأ. لم لا تستطيع التظاهر تماماً كليزا؟

لبى النادل الطلب على أحسن وجه، فعاد في غضون دقائق مع كأسين: أحدهما طويل يحوي سائلاً برتقالياً والآخر صغير يحوي سائلاً توركوازياً.

قالت ليزا وهي تأخذ الكأس البرتقالي: «إنه يشبه مشروباً أعرفه، ولكنني لا أملك فكرة عن محتوياته».

عبس النادل: «إنه مستخرج من قصب السكر الممزوج بعصير الجوافا».

فقالت كيت وهي تنظر إلى الكأس الآخر بحذر: «وماذا عن خلطة سمك القرش؟».

التمعت عيناه بتسلية، وقال بجدية: «خلاصة زهرة الأوركيديا المناسبة للحب».

ثم انسحب عابساً، فضحكت ليزا عالياً بصدق لا أثر فيه للإدعاء هذه المرة. واستدارت كيت نحوها بعينين حانقتين: «هل قصد ما أظن أنني فهمت؟».

قالت ليزا ضاحكة: «أعتقد ذلك. هذا المكان يحفزك على القيام بالخطوة الجريئة. وكأنه يدعوك إلى الزواج فيما يتكفل هو بالباقي».

ونظرت كيت إلى المشروب: «كفي عن التمتمة. اتعنين أنك أحضرت لي مشروباً مثيراً؟».

قالت ليزا بمرارة: «حسناً، لنقل بالتحديد إن نيكولا قد اشترى لك مشروباً مثيراً، فالليلة ستكون على حسابه».

قالت كيت بسخرية: «عظيم فهذا ما اريده تماماً».

إلا أن ليزا كانت تنظر في البطاقة الصغيرة التي أحضرها النادل مع مشروبيهما، وقالت بغرابة: «أنظري، لديهم خريطة للتنزه تحت ضوء القمر. لديهم كل ما يحتاجه العروسان المرتبكان».

وسألت كيت وقد اعتراها الفضول لهذا التصريح المفاجيء: «وهل كنت فعلاً مرتبكة؟».

لم تكن تظن بأن أختها قد ترتعب من شيء، إذ كانت ليزا مسؤولة عن نفسها منذ بلغت السابعة.

ـ آه، أجل طوال الوقت. في كل مرة يتركني نيكولا وحيدة ولو لبرهة، أموت خوفاً.

عضت كيت شفتها: «يبدو ذلك سبباً وجيهاً آخر للامتناع عن الزواج».

تنهدت ليزا. وقالت بصوت غريب: «نيكولا. لقد حضر في النهاية».

في الممر المحفوف بالأشجار، وقف رجل أسمر طويل ونظر عمداً إلى المقاعد المظللة بحثاً عن زوجته قبل أن يكمل سيره. تسنى لكيت الوقت الكافي للرحيل قبل اقترابه، إذ تناولت كأسها ونهضت معلنة: «واثقة من أنه أخطأ في المشروب. لا يمكن لأحد أن يدفع ثمن شامبو. سأعيده إلى المقصف».

قالت ليزا: «حسناً».

وخيل لكيت أنها لم تنتبه مطلقاً لما قالته لها. فقد كانت تنظر إلى نيكولا بإصرار، وقبعت في مكانها كفأرة منتظرة منه العثور عليها.

لم يع فيليب حتى أنه كان يحاول العثور على الفتاة. لقد أخرجها من رأسه لأربعة أيام، تقريباً، لكن ما إن رآها حتى أدرك بأنه كان ينتظرها.

فردّت ليزا دون اكتراث: «حسناً نادي النادل هناك، ودعينا نشرب واحداً من تلك الكوكتيلات الباردة».

إلا أن النادل حضر إلى مكانهما السري، فقالت له ليزا بخفة: «أحضر لنا مشروبين من الكوكتيل اللذيذ الذي تعدّه».

كانت تضحك مجدداً، فواجهتها الاجتماعية قد عادت إلى سابق عهدها وتمنت كيت لو أنها تستطيع أن تكون مثلها وتتمكن من إخفاء مشاعرها فلا تعلنها بوضوح للملأ. لم لا تستطيع التظاهر تماماً كليزا؟

لبى النادل الطلب على أحسن وجه، فعاد في غضون دقائق مع كأسين: أحدهما طويل يحوي سائلاً برتقالياً والآخر صغير يحوي سائلاً توركوازياً.

قالت ليزا وهي تأخذ الكأس البرتقالي: «إنه يشبه مشروباً أعرفه، ولكنني لا أملك فكرة عن محتوياته».

عبس النادل: «إنه مستخرج من قصب السكر الممزوج بعصير الجوافا».

فقالت كيت وهي تنظر إلى الكأس الآخر بحذر: «وماذا عن خلطة سمك القرش؟».

التمعت عيناه بتسلية، وقال بجدية: «خلاصة زهرة الأوركيديا المناسبة للحب».

ثم انسحب عابساً، فضحكت ليزا عالياً بصدق لا أثر فيه للإدعاء هذه المرة. واستدارت كيت نحوها بعينين حانقتين: «هل قصد ما أظن أنني فهمت؟».

قالت ليزا ضاحكة: «أعتقد ذلك. هذا المكان يحفزك على القيام بالخطوة الجريئة. وكأنه يدعوك إلى الزواج فيما يتكفل هو بالباقي».

ونظرت كيت إلى المشروب: «كفي عن التمتمة. اتعنين أنك أحضرت لي مشروباً مثيراً؟».

قالت ليزا بمرارة: «حسناً، لنقل بالتحديد إن نيكولا قد اشترى لك مشروباً مثيراً، فالليلة ستكون على حسابه».

قالت كيت بسخرية: «عظيم فهذا ما اريده تماماً».

إلا أن ليزا كانت تنظر في البطاقة الصغيرة التي أحضرها النادل مع مشروبيهما، وقالت بغرابة: «أنظري، لديهم خريطة للتنزه تحت ضوء القمر. لديهم كل ما يحتاجه العروسان المرتبكان».

وسألت كيت وقد اعتراها الفضول لهذا التصريح المفاجيء: «وهل كنت فعلاً مرتبكة؟».

لم تكن تظن بأن أختها قد ترتعب من شيء، إذ كانت ليزا مسؤولة عن نفسها منذ بلغت السابعة.

ـ آه، أجل طوال الوقت. في كل مرة يتركني نيكولا وحيدة ولو لبرهة، أموت خوفاً.

عضت كيت شفتها: «يبدو ذلك سبباً وجيهاً آخر للامتناع عن الزواج».

تنهدت ليزا. وقالت بصوت غريب: «نيكولا. لقد حضر في النهاية».

في الممر المحفوف بالأشجار، وقف رجل أسمر طويل ونظر عمداً إلى المقاعد المظللة بحثاً عن زوجته قبل أن يكمل سيره. تسنى لكيت الوقت الكافي للرحيل قبل اقترابه، إذ تناولت كأسها ونهضت معلنة: «واثقة من أنه أخطأ في المشروب. لا يمكن لأحد أن يدفع ثمن شامبو. سأعيده إلى المقصف».

قالت ليزا: «حسناً».

وخيل لكيت أنها لم تنتبه مطلقاً لما قالته لها. فقد كانت تنظر إلى نيكولا بإصرار، وقبعت في مكانها كفأرة منتظرة منه العثور عليها.

لم يع فيليب حتى أنه كان يحاول العثور على الفتاة. لقد أخرجها من رأسه لأربعة أيام، تقريباً، لكن ما إن رآها حتى أدرك بأنه كان ينتظرها.

كانت كيت تمشي كما تسبح تماماً: برشاقة وثبات. لم تكن تفعل ذلك عمداً، إذ يبدو أنها لا تعي أن الجميع كان ينظر إليها، وفيليب لم يكن الوحيد، إذ إن سائر الرجال على طاولته راحوا يتأملون تلك الشقراء الطويلة بمشيتها الرشيقة وملامحها المتكبرة. اعترت فيليب نوبة من التملك، فشعر بأنه ليس لديهم الحق بالنظر إليها، فهم لم يساعدوها في الخروج من المياه، ولم يخبروها عن سرّ أنوار المحيط، أو حتى حملوها على الضحك، كما أنهم لم يتلقوا منها دعوة للانضمام إليها في البحر، ولم يعانقوها.

نهض فجأة متمتماً: «أعذروني، ألمح صديقة هناك».

تركهما قبل أن يتفوها بكلمة، فهمس الرجل الفرنسي وقد بانت عليه إمارات التأثر والتسلية: «وأخيراً، أظهر بادرة تدل على أنه حي».

إلا أن فرناندو كان ينظر نحو رئيسه بتعبير قلق: «هذا لا يشبهه إطلاقاً».

ـ آه، هيا. وأين السوء في ذلك؟ لم يتبق ما يفعله الليلة؟ لم لا يتسلّى ويمرح؟ إنها جزيرة استوائية. النسيم عليل والفتاة جميلة. لن تكون إنساناً إذا فوتت الفرصة.

فقال فرناندو: «أنت لا تفهم. فيليب هاردستي ليس من البشر».

ولكن الرجل الفرنسي كان يراقب المشهد أمامه: كانت الفتاة مسرعة إلا أن فيليب أوقفها بكلمة فاستدارت نحوه وأشرق وجهها فور تعرفها عليه.

* * *

قال فيليب: «أهلاً مجدداً».

فاستدارت الفتاة نحوه بفضول. يبدو أنها نسيت بأنها سبحت بسرعة بعيداً عنه في المرة الأخيرة.

ـ مرحباً.

قالت ذلك بصوتها المبحوح الذي لطالما سكن أحلامه، وتسارعت

نبضاته تجاوباً، إلا أنه أخفى ذلك قائلاً: «أين تأخذين هذا الكأس؟ نحو الشاطىء؟».

وأقرّت الفتاة: «بل أعود به إلى النادل. لم أقدر أن أشربه. يفترض به أن يحوي خلاصة الأوركيديا ولكنني أظن بأن طعمه فاسد».

ابتسم فيليب وتناوله منها: «إذاً دعيني أحضر لك شيئاً تستطيعين شربه، إلا إذا كنت تنتظرين أحداً!».

أضاءت الابتسامة عينيها، وهزت رأسها، فتماوجت أنوار المصابيح على شعرها فاستحال ذهبياً لامعاً.

ـ حسناً، لقد كنت كذلك، غير أن وصوله جعلني دخيلة.

ذهل للارتياح الذي شعر به فقال: «أنت هنا برفقة صديقة؟».

ـ شقيقتي.

قادها إلى المقصف، وتمنى لو يتمكن من إحاطتها بذراعه، غير أن خطوته ستبدو متسرّعة وعلنية. كما أنه لم يكن متأكداً من ردة فعلها.

لقد سبق أن فرت منه في المرة الأخيرة.

... غير أنها كانت سعيدة للقياه، وكانت حرة للعشاء على ما يبدو، ففكر فيليب بضرورة التمهل في تحقيق مراده. استرعى انتباه النادل دون أن يرفع حتى يده، وقال: «لم تحب السيدة خليطك، ساربيل أعطها...».

واستدار نحو الفتاة رافعاً حاجبه: «ماذا تودين؟ شيئاً مألوفاً؟ أو تجربة جديدة؟».

لم تتردد كثيراً بالقول: «تجربة جديدة».

وضحكت بنعومة مثيرة متابعة: «يبدو أن اسبوعي حافل بالتجارب الجديدة».

ألقى نظرة خبيرة على لائحة العصائر، فلم يستسغها جميعاً: «أحضر لي مزيجاً من عصير المانغو، وجوزة الطيب تلك وبعضاً من شرائح الليمون».

نفذ النادل ما طلب منه مقطباً: «المانغو لذيذ ولكنه يعطي نكهة

www.elromancia.com

دسمة».

لِـمَا عليه أن يبدو دائماً كما لو أنه استاذ؟ هل نسي كيف يتكلّم مع النساء اللواتي يعجبنه؟ فكر فيليب منزعجاً من نفسه ومنحها ابتسامة كاذبة، ثم قال:

- إنه كوكتيل تعلمته من أحدهم. فشرائح الليمون الحامض تخفف من حلاوة المانغو. أتعلمين بأنه يقال إن فاكهة الجنة كانت بالفعل ثمرة المانغو؟.

لم تبد الفتاة أي انتقاد على قوله فقالت وقد استحسنت الفكرة: «فاكهة الجنة».

خضّ الخليط فجأة ودفع الكأس نحوها قائلاً: «تذوقيه».

احتست الفتاة رشفة، وبدت من النوع الذي يأخذ اكتشافاته الجديدة على محمل الجد، وقالت بحذر: «إنها غريبة المذاق».

ضحك فيليب وألقى برأسه إلى الوراء بفرح.

- ليس عليك أن تشربيه ما لم تحبيه.

بدا مرحاً ومتحرراً وقد هنّأ نفسه على تصرّفه. توهجت الفتاة خجلاً أمامه وقد بدت عيناها غريبتين؛ خضراوين؟ رماديتين؟ سيكون عليه الاقتراب منها للتأكد. قالت: «أظنني غدوت أكثر شجاعة من السابق لخوض التجارب الجديدة، لذا سأشربه».

قال بخفة: «هل تشعرين بالشجاعة الكافية لتناول العشاء معي؟».

فكر في سرّه بأنه أحسن اقتناص الفرصة، واكتشف أنه يحبس أنفاسه بانتظار الجواب. نظرت كيت إلى مشروبها وقالت: «عشاء؟ أين؟».

- أينما تشائين طالما أنه في مكان ما في المجمع السياحي، ما رأيك باحدى وجبات الكاري المحلية.

ضحكت معلقة: «كاري الجنة؟».

- تماماً.

أخفضت كيت عينيها نحو الأسفل، فلاحظ أن أهدابها تكاد تلامس

خديها الناعمين كخدود الأطفال ففاجأه ذلك.

تساءل في سره عن عمرها، وعما يفعله معها بحق السماء، فقال بتماسك مفاجيء: «طبعاً، على شقيقتك وصديقها المجيء أيضاً».

- إنه زوجها وأظن بأنهما يحتاجان فعلاً للاختلاء.

- آه.

لم يعلم فيليب ما إذا كان عليه أن يفرح أو أن يحزن. لقد كان في الحقيقة يشعر بالتردّد كصبي مراهق. لم يعد بإمكانه التذكر متى أحس بمثل ذلك الإحساس في السابق أو ما إذا شعر به أصلاً. حتى في صغره، كان دائماً يعلم ما يرغبه. هذا الإحساس كان جديداً عليه لأن السنوات قد علّمته إخفاءه.

قالت: «أود فعلاً أن أتناول العشاء معك».

فبادرها بالسؤال: «رائع، أتريدين تناول المشاوي على الشاطيء أم على شرفة المطعم؟».

- أظن أن رجال الأعمال في هذه الساعة يتهافتون على الطعام ليتمكنوا من العودة إلى العمل. إنه ليس وضعاً مريحاً.

ورمش فيليب، فهذا بالتحديد ما كان سيفعله الليلة لو لم يرها، فقال: «حسناً، أتفهم ذلك».

وإذ خطرت له فكرة قال بحدة: «حسناً. ما رأيك لو نطلب من خدمة الغرفة توضيب الطعام لنا لنحمله معنا إلى الشاطيء».

أومأت مغتبطة: «أو إلى الشلال».

وشحب فيليب: «ماذا؟».

التقطت كيت واحدة من القصاصات الورقية، وفتحتها قائلة وهي تشير بإصبعها نحو الخريطة: «نزهات تحت ضوء القمر. أنظر إلى هذا الشلال الرائع عند المنحدرات الصخرية. نستطيع الجلوس والتمتع بالمكان. أنا أذهب إلى هناك يومياً ولكنه سيكون رائعاً في الليل».

وأحسّ فيليب بأن أمامه فخ خطر سيطبق عليه. آه من تلك الاهداب!

دسمة».

لِـمَا عليه أن يبدو دائماً كما لو أنه استاذ؟ هل نسي كيف يتكلّم مع النساء اللواتي يعجبنه؟ فكر فيليب منزعجاً من نفسه ومنحها ابتسامة كاذبة، ثم قال:

- إنه كوكتيل تعلمته من أحدهم. فشرائح الليمون الحامض تخفف من حلاوة المانغو. أتعلمين بأنه يقال إن فاكهة الجنة كانت بالفعل ثمرة المانغو؟.

لم تبد الفتاة أي انتقاد على قوله فقالت وقد استحسنت الفكرة: «فاكهة الجنة».

خضّ الخليط فجأة ودفع الكأس نحوها قائلاً: «تذوقيه».

احتست الفتاة رشفة، وبدت من النوع الذي يأخذ اكتشافاته الجديدة على محمل الجد، وقالت بحذر: «إنها غريبة المذاق».

ضحك فيليب وألقى برأسه إلى الوراء بفرح.

- ليس عليك أن تشربيه ما لم تحبيه.

بدا مرحاً ومتحرراً وقد هنّأ نفسه على تصرّفه. توهجت الفتاة خجلاً أمامه وقد بدت عيناها غريبتين؛ خضراوين؟ رماديتين؟ سيكون عليه الاقتراب منها للتأكد. قالت: «أظنني غدوت أكثر شجاعة من السابق لخوض التجارب الجديدة، لذا سأشربه».

قال بخفة: «هل تشعرين بالشجاعة الكافية لتناول العشاء معي؟».

فكر في سرّه بأنه أحسن اقتناص الفرصة، واكتشف أنه يحبس أنفاسه بانتظار الجواب. نظرت كيت إلى مشروبها وقالت: «عشاء؟ أين؟».

- أينما تشائين طالما أنه في مكان ما في المجمع السياحي، ما رأيك باحدى وجبات الكاري المحلية.

ضحكت معلقة: «كاري الجنة؟».

- تماماً.

أخفضت كيت عينيها نحو الأسفل، فلاحظ أن أهدابها تكاد تلامس

خديها الناعمين كخدود الأطفال ففاجأه ذلك.

تساءل في سره عن عمرها، وعما يفعله معها بحق السماء، فقال بتماسك مفاجيء: «طبعاً، على شقيقتك وصديقها المجيء أيضاً».

- إنه زوجها وأظن بأنهما يحتاجان فعلاً للاختلاء.

- آه.

لم يعلم فيليب ما إذا كان عليه أن يفرح أو أن يحزن. لقد كان في الحقيقة يشعر بالتردّد كصبي مراهق. لم يعد بإمكانه التذكر متى أحس بمثل ذلك الإحساس في السابق أو ما إذا شعر به أصلاً. حتى في صغره، كان دائماً يعلم ما يرغبه. هذا الإحساس كان جديداً عليه لأن السنوات قد علّمته إخفاءه.

قالت: «أود فعلاً أن أتناول العشاء معك».

فبادرها بالسؤال: «رائع، أتريدين تناول المشاوي على الشاطيء أم على شرفة المطعم؟».

- أظن أن رجال الأعمال في هذه الساعة يتهافتون على الطعام ليتمكنوا من العودة إلى العمل. إنه ليس وضعاً مريحاً.

ورمش فيليب، فهذا بالتحديد ما كان سيفعله الليلة لو لم يرها، فقال: «حسناً، أتفهم ذلك».

وإذ خطرت له فكرة قال بحدة: «حسناً. ما رأيك لو نطلب من خدمة الغرفة توضيب الطعام لنا لنحمله معنا إلى الشاطيء».

أومأت مغتبطة: «أو إلى الشلال».

وشحب فيليب: «ماذا؟».

التقطت كيت واحدة من القصاصات الورقية، وفتحتها قائلة وهي تشير بإصبعها نحو الخريطة: «نزهات تحت ضوء القمر. أنظر إلى هذا الشلال الرائع عند المنحدرات الصخرية. نستطيع الجلوس والتمتع بالمكان. أنا أذهب إلى هناك يومياً ولكنه سيكون رائعاً في الليل».

وأحسّ فيليب بأن أمامه فخ خطر سيطبق عليه. آه من تلك الاهداب!

لا يبدو عليها أي أثر للخوف، بل بدت واثقة تماماً من نواياه. ولكن هل هذا صحيح؟ فسألها: «هل تعتقدينها فكرة حسنة؟».

بدت شاردة لبرهة ثم أومأت: «آه، تعني أنه قد يكون مقفلاً لأن الفندق فارغ؟ قالت ليزا إنهم ألغوا الكثير من خدماتهم ولكن من المؤكد أن الممر سيبقى على حاله».

كان يعلم تماماً بأنه ليس آمناً لكليهما. لم لا تدرك ذلك؟ أو أنها تعلم ولا تحفل؟ هل راودتها أفكار بشأن هروبها منه في تلك الليلة؟ ألم تدرك ذلك التفاعل بينهما؟ أو أنها غير مدركة تماماً للجاذبية القاتلة بينهما؟

وقالت كيت: «حسناً، فلنسأل عن الموضوع».

انحنت بثقة نحو الساقي، وأدرك فيليب أنه أساء فهمها تماماً: «هل الممر المؤدي إلى الشلال آمن ليلاً؟».

نقل الساقي نظره بينها وبين فيليب وقطب قائلاً: «طبعاً».

وشكره فيليب بسخرية. كان يود الذهاب بشدة، فقد مضى وقت طويل منذ أحس بتلك الرغبة القوية بفعل شيء ما. إلا أنه يخشى الإغراء الذي يتدفق منها، وتذكر تحذيرات حارسه الشخصي. لو رافقها في نزهة تحت ضوء القمر، ألن يعرّض حياتها للخطر؟ بالنسبة له، سيكون سعيداً بلقاء رفيق مجدداً، وستسنح له الفرصة لإقناعه بالعودة إلى المفاوضات. ولكن هذه الفتاة مسألة أخرى. استمهلها قليلاً فيما كان يزن المخاطر، هل هو مضاء بشكل كاف؟ ألا توجد زوايا مظلمة تعرضنا للسقوط في البحر؟ أو حيث يمكن للمحاربين الثوار الاختباء؟ ولكنه مع ذلك لم يقل شيئاً عن المحاربين، بل استعاض عن ذلك بسؤال النادل: «ليس هناك من مخابىء أو أفخاخ في الممر؟».

وطمأنه النادل مزوداً إياه ببعض التفاصيل، وعندما أدارت الفتاة عينيها الواسعتين نحوه، فكر باشمئزاز بأنه يبدو مجدداً كأستاذ: ستظن بأنني جبان! ودّ لو ينسى أنه مفاوض هادىء وعادل فقط لليلة واحدة، ويتصرف

كأي رجل. فأذعن للقدر قائلاً بفظاظة: «حسناً، حسناً، هل يمكنك تدبر أمر الطعام لنا؟».

إلا أن ساريبل استطاع القيام بما هو أفضل من ذلك فهو سيسعى إلى تأمين الطعام حتى المغارة. وردد فيليب وقد قفزت شكوكه القديمة إلى رأسه: «المغارة؟».

فضحكت كيت قائلة: «إنها عبارة عن بضعة صخور يجلس الناس عليها خلال النزهة. إنه ليس ملجأ رومنسياً بالتحديد».

نظر فيليب نحوها فرأى وجهها مفعماً بالبهجة الصادقة، ففكر بأنها قطعاً تعلم ما تفعله، وجزم بأنه لكثرة جدّيته ما عاد يستطيع قراءة إشارات الاستجابة بوضوح. بادلها الابتسام: «حسناً، لنذهب».

كان الممر مضاءً تماماً كما وصفه الساقي، مفروشاً بقشور خشبية باستثناء بعض الأماكن الصخرية البارزة، كما أن جذور الأعشاب كانت تخترق اللوحات الخشبية. بعد مسافة قليلة، تحوّل الممر إلى صخري فأمكن نحت درجات فيه وكان صدى خطواتهما يتردد بوضوح فوقها.

راحت كيت تتسلق بضع درجات برشاقة لتصل إلى صخرة مشرفة على البحر. ثم قالت متفاجئة: «ألم تصعد إلى هنا من قبل؟».

رفع وجهه وهو يأخذ نفساً طويلاً قائلاً بصدق: «ليس لدي وقت. كنت أعمل بشكل متواصل فأنا أنتمي إلى أولئك الرجال المسنين الذين يبتلعون طعامهم بسرعة في حفلة الشواء على الشاطىء».

نظرت إليه فبدت النجوم وكأنها تلمع فوق رأسها، وقالت بصوتها الأبحّ: «أنت لست متقدماً في العمر».

هز كتفيه بلا مبالاة رافضاً الإجابة أو حتى التفكير بإجابة، وقال محاولاً منع نفسه من التفكير: «أنظري إلى القمر».

بدا رائعاً وقريباً جداً كما لو أنه يدنو من الأرض تدريجياً لتفحص تضاريسها. كانت أطرافه ضبابية وكأنه سحابة من الدخان، وكان هواء

البحر يغطيه بغيوم صغيرة عابرة. قال بنعومة: «الليلة، تحلق الساحرات على العصا».

فقالت بفضول: «ماذا؟».

ـ هذا ما كانت تردده حاضنتي، عندما تكون الأمسية صافية والرياح قوية.

فسألته: «وهل كان لديك حاضنة حينذاك؟».

ـ العديد منهن.

ـ آه.

وأحس بانكماشها فسألها: «لديك اعتراضات على وجود الحاضنات؟».

تمتمت بإيجاز: «كلا».

فأكمل كمن يفتش عن عذر: «غالباً ما كان والداي يسافران، فأبي كان ديبلوماسياً وقد عيّن في أماكن غير آمنة. وكانت والدتي ترافقه، غير أنها أرادت لي منزلاً آمناً».

قالت الفتاة بصوت عميق: «ديبلوماسي؟ ألم تكن حياتك موحشة؟».

وذهل فيليب، ثم قال مؤاسياً: «كانت الحاضنات لطيفات للغاية».

ولم تتفوّه بشيء فقال مداعباً: «يبدو أنك عانيت من حاضنة رهيبة».

ـ لا، مطلقاً.

وبدا أكثر ذهولاً: «حسناً، ماذا إذاً؟».

توقفت في منتصف الممر، ونظرت إليه مسندة يديها على أردافها معلنةً: «لم يكن لدي حاضنات، ولا ديبلوماسيون في العائلة ولا أب أيضاً بصراحة. لقد عملت أمي بجد طيلة حياتها. عشنا في الواقع في بيت متواضع إلى أن غدت شقيقتي نابغة اقتصادية، وتزوجت رجلاً من سلالة عريقة، غير أننا أنا وليزا من أصل متواضع».

رفعت ذقنها قائلة: «لا أرغب في أن تأخذ انطباعاً مغالطاً للحقيقة».

ارتجف فيليب قليلاً، ليس بسبب ما قالته، ولكن بسبب النبرة القوية التي تكلمت بها. قال بهدوء وبعجل: «ما من إنسان بلا قيمة».

نظرت إليه بعينين حانقتين: «هل تقول بأنك توافق على زواجي بأحد أفراد عائلتك».

ردّ فيليب ببرودة تلقائية: «لو أن فرداً من عائلتي قرر الزواج بك، فسأسممه».

فأجابها ردة فعله وجدتها أرضاً: «آه!».

وفرحت رغم ذهولها. آه من أهدابها! فكر فيليب، إذ لم يستطع منع نفسه، فالإغراء كان شديداً. أحاطها بذراعه فلم تقاوم وقال بلطف: «هيا، لنذهب إلى مغارتك، وعندها يمكنك إخباري بكل شيء».

* * *

www.elromancia.com

البحر يغطيه بغيوم صغيرة عابرة. قال بنعومة: «الليلة، تحلق الساحرات على العصا».

فقالت بفضول: «ماذا؟».

ـ هذا ما كانت تردده حاضنتي، عندما تكون الأمسية صافية والرياح قوية.

فسألته: «وهل كان لديك حاضنة حينذاك؟».

ـ العديد منهن.

ـ آه.

وأحس بانكماشها فسألها: «لديك اعتراضات على وجود الحاضنات؟».

تمتمت بإيجاز: «كلا».

فأكمل كمن يفتش عن عذر: «غالباً ما كان والداي يسافران، فأبي كان ديبلوماسياً وقد عيّن في أماكن غير آمنة. وكانت والدتي ترافقه، غير أنها أرادت لي منزلاً آمناً».

قالت الفتاة بصوت عميق: «ديبلوماسي؟ ألم تكن حياتك موحشة؟».

وذهل فيليب، ثم قال مؤاسياً: «كانت الحاضنات لطيفات للغاية».

ولم تتفوّه بشيء فقال مداعباً: «يبدو أنك عانيت من حاضنة رهيبة».

ـ لا، مطلقاً.

وبدا أكثر ذهولاً: «حسناً، ماذا إذاً؟».

توقفت في منتصف الممر، ونظرت إليه مسندة يديها على أردافها معلنةً: «لم يكن لدي حاضنات، ولا ديبلوماسيون في العائلة ولا أب أيضاً بصراحة. لقد عملت أمي بجد طيلة حياتها. عشنا في الواقع في بيت متواضع إلى أن غدت شقيقتي نابغة اقتصادية، وتزوجت رجلاً من سلالة عريقة، غير أننا أنا وليزا من أصل متواضع».

رفعت ذقنها قائلة: «لا أرغب في أن تأخذ انطباعاً مغالطاً للحقيقة».

ارتجف فيليب قليلاً، ليس بسبب ما قالته، ولكن بسبب النبرة القوية التي تكلمت بها. قال بهدوء وبعجل: «ما من إنسان بلا قيمة».

نظرت إليه بعينين حانقتين: «هل تقول بأنك توافق على زواجي بأحد أفراد عائلتك».

ردّ فيليب ببرودة تلقائية: «لو أن فرداً من عائلتي قرر الزواج بك، فسأسممه».

فأجأتها ردة فعله وجمدتها أرضاً: «آه!».

وفرحت رغم ذهولها. آه من أهدابها! فكر فيليب، إذ لم يستطع منع نفسه، فالإغراء كان شديداً. أحاطها بذراعه فلم تقاوم وقال بلطف: «هيا، لنذهب إلى مغارتك، وعندها يمكنك إخباري بكل شيء».

* * *

www.elromancia.com

٤ ـ ليل وقمر و . . عناق

قالت كيت: «الممر أكثر انحداراً مما يبدو عليه في النهار».

ثم أضافت: «كما أنه لا يبدو بعيداً إلى هذا الحد. أعرف تلك الشجرة! لقد أوشكنا على الوصول. كم هذا غريب!».

وقال الرجل بهدوء: «عندما تأتين إلى هنا في وضح النهار، لا بد أنك تتوقفين باستمرار للتمتع بالمناظر».

أجابت كيت في سرها: كما أنك لا تمسك بيدي في النهار.

حاولت أن تبدو طبيعية، فقالت بصوت هادىء: «هل تعي أنني لا أعرف اسمك؟».

قال من دون أن يحاول مساعدتها: «أجل».

جمدت كيت أرضاً، إذ أعطاها ذلك سبباً لنزع يدها منه ما ساعدها على استعادة أنفاسها فقط ولكنه لم يزل انزعاجها. أحست فجأة بوحدة مرعبة. طبعاً، كان ذلك سخيفاً، ولكن الوحدة غمرتها كموجة بحرية. حاولت إخفاء ذلك بقولها: «هل ستطلعني على اسمك أم لا؟».

بدا عليه التردد ثم قال بحذر: «أنا فيليب هاردستي».

استشفت كيت الحذر في صوته وتمتمت: «هل يفترض بذلك أن يعني لي شيئاً؟».

ـ لا.

غير أنها لم تصدقه فقالت: «أنت مشهور، أليس كذلك؟ ماذا تفعل؟

تتسلق الجبال؟ تحمي فصيلة القردة؟».

وبدا عليه الذهول فقال: «لا. ولِمَ تسألين؟».

وهمّت كيت بالصعود مجدداً: «لأنها مهنة صهري، فهو هنا في إطار حملة لإنقاذ الغابات الاستوائية. لقد قال إن كل النزلاء في الفندق يعقدون اجتماعات كذلك».

فأردف فيليب: «إنه محق نوعاً ما، أقله في سلسلة الاجتماعات المغلقة كما يمكنك تسميتها. نحن نتحاور ولكننا لا نقوم تحديداً بالشيء نفسه».

ـ إذاً، ما الذي تفعله؟ هل أنت عالم طبيعي؟

قال بابهام: «بطريقة ما. والآن بما أنني أخبرتك عن اسمي. ماذا عنك؟».

وبدا عليها الإجفال بطريقة غريبة، إذ شعرت بأنها تعطيه شيئاً من ذاتها فيما لم تكن واثقة أن بإمكانها إعطاءه أي شيء، وهو كان يجهل ذلك طبعاً. لم يعلم بأنه الرجل الأوّل الذي سمحت له بلمسها منذ سنتين. ارتعبت للفكرة فقالت باقتضاب:

ـ كاترين روماني.

ـ كاترين؟ هل هذا ما يسمونك به؟

فقالت مكرهة: «عائلتي تناديني كيت».

ـ يسرني لقاؤك كيت.

أومأت من دون كلام وما لبثا أن وصلا إلى منحنى يستهويها بشكل خاص. لقد كان الأخير قبل بلوغهما منبسطاً معشوشباً يستطيعان رؤية الشلال منه، ويمكنهما سماع خرير المياه التي تجري عند زاوية المنحدر. قربهما، انتصبت شجرة مانغو منحنية على المنحدر، وقد تدلت بعض البراعم على أغصان الشجرة العارية وهي تنشر شذاها القوي المعطِّر في الجو.

قالت كيت بنعومة وقد تناست حذرها مأخوذة بأفكارها: «رائع، أليس كذلك؟ أحياناً، أصعد إلى هنا فقط لمجرّد استنشاق الهواء فذلك

يشعرني بأنني أنقي رئتي».

أخذ نفساً طويلاً: «إنه يشبه عطر النساء. ما هو؟».

وأرته الزهور. رفع واحدة منها ولامسها بإصبعه برفق، فبدا وكأن البراعم كانت تتمايل مع النسيم قبل أن يتلاعب بها.

أدار فيليب الزهرة نحوها متسائلاً: «وردي، صحيح؟ أو أنه بنفسجي قاتم؟ أهذا هو لونها في وضح النهار؟».

وافقت: «نعم».

ـ إنها سانغامي.

وبدا هادئاً وراضياً عن نفسه لقدرته على تحديد نوع الزهرة.

حدّقت به كيت: «ماذا؟».

ـ إنها واحدة من أقوى روائح الأوركيديا. ليست نادرة، غير أن رائحتها تجعلها استثنائية.

وأطلقت كيت صيحة مرح قائلة: «لم عليك تسمية كل شيء دائماً؟».

ـ ماذا؟

ـ عندما كنت أسبح، أخبرتني عن الضوء الفوسفوري وعن اسم تلك الطيور المائية الرائعة، والآن هذا. لم لا تستطيع الاستمتاع بشيء لمجرد جماله فقط؟

فاحتجّ فيليب: «ولكنني أفعل».

فقالت بلهجة لاذعة: «كلا. أنت تصف كل شيء وتدرجه في ملفات. أراهن على أنك جد منظم».

قال فيليب منزعجاً: «في الحقيقة، أنا كذلك، ولكنها ليست تهمة شنيعة».

فأردفت كيت بقوة: «عليها إذاً أن تكون كذلك. أنظر من حولك. عليك أن تعيش الحاضر فأوقات كهذه لا تأتي إلا مرة في العمر».

راحت تراقب المشهد بذهول. كانت السماء قاتمة يزينها القمر

والهالات المحددة التي تجاور النجوم. في الأفق كان اللون الأسود طاغياً، غير أن البحر يشبه الحرير الموشح، حيث يتوهج اللون الأخضر كذنب الطاووس الفضي وسط السواد. قالت كيت بصوت أقرب إلى الهمس: «إنه يجعلني أشعر بأنني صغيرة وآمنة».

نظر إليها فيليب بذهول: «آمنة؟ هل يُشعرك الصغر بالأمان؟».

ـ ليس سيئاً أن يكون الإنسان مجهولاً.

ـ إنها وجهة نظر مثيرة للإهتمام...

رفعت يدها: «كفّ عن ذلك».

ـ عن ماذا؟

ـ تسمية الأمور.

وساد صمت قصير. عندها، قال فيليب: «جيد، لا مزيد من الأرشفة الليلة».

واستشفت البسمة في صوته. أشعرها ذلك بالفرح والرعب معاً، فقالت بصوت عالٍ ومتصنّع: «إن المكان الذي سترى منه الشلال هو بعد المنعطف التالي. هيا».

كان الشلال يتدفق على الصخور في الجهة الأخرى من الوادي. بدا لونه فضياً تحت ضوء القمر. كان الرذاذ يتطاير نحو السماء وكأنه مذنّبات ضوئية.

ـ يا الهي.

وفرحت كيت لردة فعله، إلا أنها لم تستطع منع نفسها من ممازحته:

ـ ألا تريد أن تخبرني كم طناً من المياه يُهدر في الدقيقة؟

قال فيليب باقتناع: «لا».

فأشرقت أسارير كيت في الظلام.

كانت قد أخبرته بأنه مكان لا يوحي بالرومنسية، ولقد صدّق ذلك، ولكن، يا الله، كم كانت مخطئة!

هذه المرة، لم يكن هناك زهور لاسترعاء انتباهه، وقد تخلت عن فكرة إخفاء مشاعرها. ضمت يديها بارتباك. سيعتقد.. سيعتقد بأنها... واقترب فيليب منها، فقالت بصوت متألم وكأنها تتكلم مع نفسها وليس معه: «أنا لا أفهم».

فقال: «آه، المغارة».

وبدا شاحباً وحانقاً، فاستدارت كيت وهي تبسط يديها: «لم أعتقد أبداً.. لم أر.. فأنا غبية، آسفة جداً».

وبدا فيليب مستمتعاً بذلك غير أن ذلك لم يكن حال كيت إذ بدا عليها أنها كانت تتلوّى داخلياً. لوحت بيدها برفض نحو مغارة لاحت لهما في الأدغال في مساحة خالية من الشجر: «لم يكن هذا متوقعاً. أعني، لم أرها في السابق، أعني... لا بد أنها كانت موجودة ولكنني لم أعرها اهتماماً».

توقفت عن الكلام وهي تعصر يديها.

كانت المغارة بناءً مستديراً بأعمدة داعمة وبسقف على شكل قبة، وقد أضيئت مئات الشموع الصغيرة في داخلها. وكانت الإنارة تتراقص بلطف في هواء الليل الناعم. تبينت كيت الآن بأنها حسبت الأعمدة المستديرة أشجاراً ونباتات، كانت شبه مختبئة وسط الخضرة الكثيفة، غير أن المكان كان من صنع يدوي، وقد حضّر وجهز وأنير لهدف واضح جداً. تباً لتلك الجزيرة وللخيالات التي تجنح فيها.

وبدا على فيليب السرور واستعاد كلامها بمكر: «عش الحاضر».

غير أن كيت كانت غاضبة جداً: «كم أنا غبية!».

ورأى فيليب أنها على وشك البكاء فتأثر: «هاي... لم يحصل سوء».

- ولكن...

قال ملاطفاً: «لا بأس. أفهم السبب. فعندما تأتين إلى هنا نهاراً، تجلسين على إحدى تلك الصخور وتنظرين إلى الشلال، وهكذا تديرين ظهرك للمغارة الصغيرة التي توحي بملذات أرضية».

رغم أنه بدا لطيفاً، إلا أنه ما زال مستمتعاً بعذابها، فتوهّج خدّا كيت في الظلام، فيما تابع قائلاً: «كفي عن القلق. لم أعتقد أبداً أنك استدرجتني إلى هنا لإغوائي».

أخيراً تمكن من إقناعها، فسرّ فيليب لأدائه. بدت محرجة كما لو أنها ضبطت في جرم مشهود، فشرع يطمئنها بقوله: «هيا، يمكننا استكشافها معاً بما أنها المرة الأولى التي نزورها فيها».

وجدا مقعداً وطاولة منخفضة وضعت عليها صحون فضية، ووعاء كبير من الفواكه الاستوائية وقطع لحم، ومياه حلوة كالعسل، كما كان هناك أريكة هندية. ابتهجت كيت، فقال فيليب وقد بدا خبيراً في التحكم بإظهار ذهوله: «إنه عشاؤنا المعد للنزهة».

- للنزهة!

فذكّرها وقد بدا المرح الخبيث في صوته: «كنت الوحيدة التي عارضت الانضمام إلى حفلة الشاطىء».

- لم أقصد أنني رغبت بهذه...

وخانتها الكلمات.

- هذه الرفاهية الفاحشة؟

فردت كيت ببرود: «بل بهرجة».

- هل تسمين ذلك بهرجة؟؟

- إنها فقط لـ... لـ...

- لإضفاء جو معين؟

أكمل جملتها مجدداً، فقالت كيت من بين أسنانها: «هلا توقفت عن إنهاء الجمل نيابة عني؟ هذه سخافة».

وتقدم فيليب وهو يقول: «يبدو لي جيداً» والتقط واحداً من تلك الصحون الفضية.

فاومت كيت رغبتها برمي تلك الأشياء: «إنه ليس مسلياً».

- بل إنه كذلك. استرخي. أنت لا تودين إغرائي وأنا كذلك، كما أنه لن يجبرنا أحد على القيام بما لا نوده.

وتمتم فيليب في سره: فليسامحني الله على كذبتي.

نظرت إليه بعينين حانقتين تحت ضوء الشموع المتراقص فلم يستطع أن يخمّن لونهما. ولكنه أحس بالشرارات التي تنعكس منهما. كم هي حساسة!

أخفى مرحه وقال بلطف: «أنظري. لنجلس ونتناول طعامنا، عندما تأوين إلى فراشك الليلة سيبدو لك ذلك تافهاً. إنه مجرد وجبة. سترين ذلك».

جلست على الأريكة كما لو أنها تخاف أن يجلس قربها. وبدت جاهزة للوقوف على قدميها حال اقترابه منها. قال فيليب بصوت حاد: «استرخي».

فردت كيت غاضبة: «وأنّى لي ذلك؟».

وجالت بنظرها باشمئزاز في المغارة، وبدت ثائرة: «في أي دقيقة، سيظهر أحد أولئك الخدم المتهامسين، أليس كذلك؟ أعني، كيف تمكنوا من إعداد كل هذا هنا؟ لم يتجاوزنا أحد على الممر. لا بد أن هناك شخص ما هنا ينتظر الأوامر».

رفع فيليب رأسه محدّقاً فيها فقالت كيت وقد تنبأت حصول تغيير في مزاجه: «ماذا؟».

- أنت محقة طبعاً. لَمَ لم أنتبه لذلك؟

- ماذا؟ هل تعتقد فعلاً بوجود أحد ما هنا؟

حاولت أن تجد ذلك مسلياً إلاّ أن الوضع كان صعباً. لم تشعر أبداً بمثل هذا الإحراج من قبل. وفكرت كيت بعبوس أن ذلك هو نتيجة السماح لنفسها بالتجاوب مع الأحلام التي راودتها. لو لم تخبرها ليزا عن الورود والأرائك التي تناسب العشاق، لما كانت تشعر الآن بوجود أحد ما مختبئاً

يتجسس عليهما، ولما كانت متضايقة من هذا الوضع. رفعت صوتها محاولة أن تحوّل الوضع إلى دعابة لتسخر منها: «أخرجوا، أخرجوا أياً كنتم».

ومع ذلك، لم يبتسم فيليب بل هز رأسه وضاقت عيناه. وقال:

- سكوت!.

بدا كما لو أنه معتاد على إعطاء الأوامر. فأحسّت فجأة بأنه شخص لا تعرفه. حسناً، كان ذلك جنوناً، فهي كانت تجهله بشتى الأحوال. أحست وكأنها تعرفه بطريقة ما، فهي تشعر معه بالدفء والحيرة والإثارة، لكنها أدركت خطأها بمجرد النظر إليه الآن، وقد بدأت تحس بالبرد رغم دفء الأمسية، فقالت ببطء: «ما الأمر».

- لم يمر بنا أي شخص في الطريق، إذاً لا بد من وجود ممر آخر للوصول إلى هنا.

عاد إلى الفسحة غير المشجرة، خارجاً: «ماذا هنالك؟».

قال فيليب وكأنه يحدث نفسه: «أظنني كنت غبياً».

كانت الأنوار المضاءة تؤدي إلى المغارة فقط وتصل طبعاً إلى الدرجات، لخطا خارج الممر المضاء نحو الجهة السفلية، وأخرج من جيبه المصباح الكهربائي. لم يستغرقهما الكثير من الوقت قبل أن يكتشفا مصعداً خشبياً، يرتفع مباشرة من ناحية المنحدر في الوادي ويستقر على بعد عدة ياردات من مطابخ الفندق الرئيسية. استدار فيليب حول المصعد متفحصاً إياه بإمعان، وكانت كيت تراقبه عاقدة الحاجبين. من السهل جداً على أي كان أن يصعد فيه، فعلق:

- ربما لن نلاحظ وجود أحدهم وسط هدير الشلال وأصوات الأدغال البدائية.

ردّت كيت بسخرية، فيما قلبها راح يدق بعنف وبصورة فجائية.

- أتعني بأن أحدهم يمكن أن يتسلل عندما لا نكون متنبهين؟ ولِمَ يقومون بذلك؟.

رمقها بنظرة جدّية: «أظنني أود التأكد من عدم حصول ذلك تحسباً للطوارىء».

وداعاً للرومنسية السخيفة!

رفع فيليب المصعد من الوادي، وبالرغم من قِدَمِه، لم يصدر أي صوت. انحنى إلى الأمام متفحصاً العجلة: «قدّرت ذلك، فلقد تم تشحيمه مؤخراً».

زمت كيت شفتيها بالرغم من مشاعرها المتناقضة، إذ يبدو أن الرومنسية غادرت المكان. فعلّقت: «عندما يحضرون لجلسة رومنسية، يأخذونها على محمل الجد».

عبس قائلاً: «رومنسية؟ آه، أجل بالطبع».

إذاً، فهو لم يكن يفكر حتى بالرومنسية! ارتجفت كيت وشبكت ذراعيها ثم توقف فيليب عن رفع القفص إذ كان قد بلغ ربع المسافة المؤدية إلى أعلى، وابتعد وتمتم قائلاً: «هذا سيفي بالغرض».

ابتعدت هي الأخرى مبقية مسافة آمنة بينهما: «بماذا؟».

قال بإبهام: «إنذار مسبق».

وأخرج سكيناً من جيبه قطع به عشبة متينة، ثم جال مسرعاً حول النباتات يبحث عن أخشاب مقطوعة، وعندما جمع رزمة كافية منها، وضعها في الونش فقالت له كيت: «هذا لن يعيق عمله».

- ليس عليه أن يعيق عمل الونش، ولكنه ينبؤنا فقط عندما يحاول أحدهم إنزاله.

- ينبؤنا؟

فجأة بدت مذهولة وقلقة فأدرك بأنه يزعجها فهز كتفيه بلامبالاة وقال بخفة: «لا أحب المفاجآت».

ولكن كيت لم تصدّق تلك اللهجة اللامبالية، وكانت تلك المرة الأولى التي لم تصدّق شيئاً قاله كما أدركت هي. وقال بحدة: «على المرء أن يحمي

نفسه دائماً».

طوى السكين في جيبه فابتلعت كيت ريقها: «وكأننا واقعين في حصار».

لم يجبها بل راح يتفحص اختراعه، وعندما اختلّ توازن القفص، سقطت بعض العيدان الخشبية محدثة قرقعة وكأنها طلقة نارية، فقفزت كيت. قال فيليب راضياً عن نفسه: «لن يتسللوا إلينا الآن؟».

وتابع عندما رأى تعبيرها: «لا تشغلي بالك، فربما لن يحدث ذلك في مطلق الأحوال».

قالت كيت بجفاف: «آه، نعم؟ كما لو أنك ستنسى؟ سنكتفي بالجلوس هنا بانتظار أن ينطلق رصاص مسدس ما».

وعبس فيليب، إلا أنه فجأة عاد إلى طبيعته التي عهدته فيها من جديد أو التي تريد أن تعرفه بها بأي حال: «كلا، لن نفعل ذلك. ستطلعينني على قصة حياتك وسأحاول أن أنسى كل شيء عدا ذلك».

وتراجع مبتسماً، فبدا ممر المغارة مناراً كمنفذ للهروب. ابتسمت كيت وخطت فيه وتبعها فيليب. ولكنّها رأت من خلال زاوية عينها، أنه أخرج هاتفه الخلوي الصغير من جيبه وتأكد من كونه شغالاً. آه، أجل، لقد اضمحلت الرومنسية، وهي ربما لم تكن مدرجة أبداً على الجدول عدا في مخيلتها المريضة. وحذّرت نفسها بسخرية أن هذا ما ينتج من جرّاء المكوث في مخبأ مصمَّم للعشاق محاط بنجوم استوائية. حاولت مجدداً التشبث بالمنطق، أما فيليب فكان يظن بأنه خسرها، وبدا حانقاً من نفسه بل من الوضع برمته. لقد تبع غريزته، فجلّ ما كان يبتغيه هو أن يكون إنساناً عادياً لبضع ساعات. لكن كل ما نجح في القيام به هو تعريض كيت روماني إلى خطر مرتقب. أفضل ما يمكن فعله الآن هو عدم إخافتها وإيصالها آمنة. للحظة، راودته فكرة العودة على الفور، ولكن ذلك الممر كان ضيقاً جداً، وإذا كان رجال رفيق ينوون فعلاً اختطافه، يمكنه في هذه الحالة أن يدفع كيت من

www.elromancia.com

بينهم، وإذا ما استعمل هو وكيت المصعد ليصلا إلى قعر الوادي، فمن يعلم ما الذي ينتظرهما لدى وصولهما هناك؟ لا، يستحسن البقاء هنا بما أنه لم يلاحظ شيئاً مريباً، بانتظار أن يظهر عدوّه. هذا إذا ما كان سيظهر فعلاً. ولكنه الآن، لم يعد واثقاً من وجوده. ولا يجب تحذير كيت فاحتياطاته قد جعلت منها حتى الآن مرتابة. لقد تبين ذلك ولم يكن باستطاعته لومها، ولكن عليه الإسراع بفعل شيء حيال ذلك. إنه يريدها أن تقضي أمسية لا تنسى في حال اتضح عدم وجود خطر ما. أما إذا كان الخطر محدقاً، فهو يحتاج إلى هدوئها، لذا يجب في كلتا الحالتين أن يحملها على الاسترخاء.

تحضر فيليب لإغوائها كما لم يفعل من قبل. لذا عندما قالت:

ـ هذا الاختراع يبدو محترفاً.

منحها إحدى أفضل ابتساماته المشرقة وهز رأسه بالنفي: «إنه مجرد ابتكار».

جلست أرضاً متسائلة: «وما الفرق؟».

ـ الاختراعات المحترفة تأتي جاهزة فالمخترعون يلجأون إلى كل ما هو متداول بين أيديهم.

استرخت قليلاً وقد بدت مستمتعة: «حسناً، إنه ذكي جداً».

فقال بخفة: «لأنني تلقنته من خبير».

أثار ذلك قلقها مجدداً، فأضاف بسرعة: «كان والدي في الجيش قبل أن تسند إليه مهام ديبلوماسية. وكان يترأس فرقة متخصصة بصنع أفخاخ ذكية، فتعلمت منه ذلك».

فأضافت كيت بنبرة استكشافية: «وأنت تمتعت بذلك».

ـ أي صبي كان سيستمع بها غير أنني أهوى إيجاد حلول للمشاكل.

والمشكلة الراهنة الآن، هي كيفية إرجاعها سليمة إلى الفندق من دون إزعابها. راح يراقب الطاولة المحمّلة بالمأكولات. كانت الشموع تتراقص وسط الصحون البراقة محوّلة المكان إلى عش رومنسي. التوى فمه بسخرية،

وتناول علبة خضراء قاتمة اللون متسائلاً: «عصير؟».

هزت رأسها، وقالت محاولة أن يبدو الأمر دعابة: «أريد الماء فأنا عطشى، وعلى كل حال فربما يكون ممزوجاً بخلاصة الأوركيديا».

تأثر فيليب لكلامها، فلقد تبيّن مدى خشيتها من حيله التي قام بها خارجاً، لذا سألها بلطف وهو يصب لها الماء: «ولِمَ خلاصة الأوركيديا؟».

فقالت: «إنها مثيرة للغرائز».

وتوهجت احمراراً فتابعت: «أو على الأقل، هذا ما أخبرتني به ليزا».

قال فيليب بجفاف: «حسناً، نحن حتماً لا نبحث عن الإثارة».

صب لنفسه مياهاً معدنية فوق عصير الجوافا، ثم ألقى عدداً من الوسائد على الأرض الرخامية وغاص فيها. أحاط ركبته المرفوعة بذراعه وتأملها قائلاً: «أخبريني إذاً عن نفسك. ماذا تفعلين في هذا الجزء من العالم؟».

أخذت كيت كلامه على محمل الجد: «أفترض أنني في عطلة».

وبدا عليه الفضول: «تفترضين؟».

ـ حسناً، لم يكن ذلك مخططاً له ولكن شقيقتي أتت إلى هنا مع زوجها، واتضح أنه مشغول طوال الوقت في عمله، لذا اتصلت بي للمجيء والانضمام إليها.

فأومأ بدوره: «أفهم أنك هنا إذاً بصفة مرافقة للسيدة».

وضحكت عالياً لكلامه: «لن تقول ذلك لو عرفت شقيقتي. فهي ليست من السيدات اللواتي يحتجن إلى رفيقة».

ـ لكنها مع ذلك تود رفقة؟

ماتت ضحكة كيت: «لم تكن بخير».

وبدت قلقة مجدداً، فرغب بأن يأخذها بين أحضانه، ليخفف من الهم الذي ارتسم على جبينها.

إلا أنها تابعت الكلام عن شقيقتها، وعن معاناة أمها الوحيدة بدخلها المحدود ومثاليتها العليا، ثم وبيطء وتردد، بدأت بالكلام عن نفسها. وفكر فيليب بأهمية ذلك فجلس في مكانه.

لم تكن كيت معتادةً على التكلّم مع أحد يصغي اليها بهذا الاهتمام، حتى أنه لم يبدُ مصدوماً أو مشفقاً عليها.

ـ أتعلم، لم تكن ليزا مشعة فحسب بل وشجاعة أيضاً على الدوام، فيما أنا لا أقوى على اجتياز امتحان من دون أن أنهار، إذ لم أكن فعلاً أجيد شيئاً على الإطلاق، كما أنني أرتعب بسرعة. عندما وصلت إلى الجامعة، بذلت مجهوداً جباراً، أقلّه في البداية، وللمرة الأولى في حياتي، لم أشأ أن أكون نسخة عن ليزا. أتفهم؟ في البداية، أردت أكون صاحبة مكتبة للأطفال، فأنا أحب الكتب، ويبدو أنني أثير اهتمام الأطفال من خلال عملي. اتضح بأنني اتمتع بالموهبة المناسبة ولكن حينها...

وتوقفت. لو أنه قاطعها بأي شكل، لما كانت عاودت السرد. لقد أدركت ذلك لأنه حصل معها ألوف المرات برفقة أصدقائها أو مع معالجين نفسانيين غريبي الأطوار، وأيضاً مع تاتيانا، وحتى ومع ليزا التي بدت مصرة على قدرتها على إعادة الأمور إلى نصابها... أما هو فلم يستعجلها، ولم يسألها شيئاً بل اكتفى بالجلوس هناك، محتسياً العصير، يراقبها بعينين هادئتين. ابتلعت كيت ريقها وتابعت: «ثمة شاب في صفي، خرجنا معاً عدة مرات وبعدها... حسناً، بات لديه صديقة حميمة في جامعة أخرى. لم أدرك ذلك في البدء وعندما حصل ذلك، صدمت».

لم يقل أيضاً شيئاً، والتزم الصمت لمدة أطول مما اعتقدته ممكناً، فانفجرت كيت بالبكاء: «كان رهيباً. كنت كدمية، اتبعه واحوم حوله وكأنني لا استطيع ردع نفسي. كان لطيفاً في البدء على ما أعتقد وبعد ذلك...».

توقفت لتبلع غصتها. كلا، فهي لم تكن مستعدة تماماً لقول ذلك بعد:

«أعتقد أنه ملَّ مني. طلب مني أن أكف عن ملاحقته، وقال إن ذلك معيب ومقرف».

لم تخبر احداً بذلك من قبل. بقي هادئاً ولم يحتج أو يتعاطف حتى، بل أومأ برأسه، كما لو أنها وجوني قد تصرفا بطريقة منطقية جداً، وقال باعتدال: «لا بأس في أن يحب المرء شخصاً لا يبادله الحب، وتعلمين بأننا نأخذ وقتاً لاجتياز هذه المحنة طبعاً».

وتابع: «لقد مررنا جميعاً بذلك، وهذا ليس معيباً، عليك فقط تقبُّل ذلك ثم نسيانه».

سألته بتعجب: «أتقول بأنك أغرمت بأحد لم يكن يريدك؟».

هز برأسه: «ومن لم يفعل؟».

وهزت رأسها مرددة: «حسناً، كل من أعرفهم».

فرد بجفاف: «إذاً فأنت لا تعرفينهم جيداً».

ـ ولكن!

بدا له أنها قد تكلّمت كفاية عن الموضوع، فنهض متسائلاً: «ألست جائعة؟ يبدو أن هذا الكاري يناديني».

رفعت كيت بصرها نحوه: «قلت للتوّ إن مأساة حياتي هي عادية».

لم تكن تعلم ما إذا كان عليها تحديه أو الضحك. تناول صحناً ووضع فيلاً من الأرز عليه: «أتحبين الطعام الحار؟».

بالكاد أعارته كيت اهتماماً: «طبعاً».

ولكنها كانت تكرهه فتابعت: «ألم تسمع ما قلته؟».

ابتسم لها وكرّر: «قلت إن أعظم مأساة في حياتك هي تافهة وأنا آسف».

أحست كيت أنها تود الضحك رغم كل شيء، إذ بدا الأمر رائعاً.

قال بحزم: «علي أن أفكر بالأمر كذلك. متى اجتزت ذلك؟».

ـ الوقوع بحب امرىء لا يحبك أمر عادي.

وفكر بالموضوع، ثم عبس بشكل مفاجىء قائلاً: «أظنني اعتقدت ذلك دائماً. ربما هذه هي حال الشبان. فقد قال لي أبي يومها، أي فيما كان يحدق من النافذة، بأنني سأرفض عدة مرات».

أطلقت كيت ضحكة متحشرجة وقالت بفضول: «وهل حصل ذلك؟».

لم تكن تستطيع تخيُّل الأمر. إلاّ أنه وضع طعامه في الصحن وجلس مجدداً أرضاً، ثم قال بغرابة وقد بدأ يأكل: «كفى».

وابتلعت كيت ملعقة كبيرة من الأرز بالكاري، فتنبهت إلى رائحتها الذكية في صحنها، هي التي لم تكن تأكل شيئاً من دون أن تتذمر بين كل قضمة وأخرى: «ألم تتألم؟».

ـ أجل بالطبع ولكن هذا الألم هو جزء من النضوج.

قالت بحزن: «أنت ناضج جداً، أليس كذلك».

نظر فيليب إلى أعلى: «إنه يحدث لكل واحد منا».

ثم تردّد: «كم تبلغين من العمر؟».

ـ الثانية والعشرين.

وبدت لهجتها دفاعية قليلاً عندما قالت: «ألا يبدو عليّ ذلك؟».

رفع حاجبيه قائلاً باعتدال: «أنت راشدة. إذا طلبت مني تحديد عمرك، لأجبت ما بين السابعة عشرة والثلاثين. لست خبيراً في الأعمار».

إلا أن كيت لم تسمع إلا عبارة واحدة، فردّدت: «السابعة عشرة!».

لقد اعتبرها إذاً مراهقة! فيما ظنت أنه معجب بها. كم كانت غبية! كم بدت غبية!

أضاف بنعومة وكأنه يتحدث في سره: «إن حوريات البحر يبلغن دائماً السابعة عشرة».

حدقت به كيت مجمدة وقد نسيت كل شيء عدا تلك النظرة في عينيه القاتمتين المركزتين عليها. رأت طيف ابتسامته فلم تستطع فهمها، فقالت

مترددة: «لا أفهم».

والتقت أعينهما. لم يعد يتكلم مع نفسه عندما قال: «وهن رائعات».

ـ ماذا؟.

ـ ربما لا تذكرين. لقد ظهرت أمامك فيما كنت تسبحين.

حدّقت كيت بوجهه بعدم تصديق، فقال: «رغبت بالدخول إلى عالمك. لقد رغبت فيك».

أصاب كيت الجمود وقالت قبل أن تمنع نفسها: «ألهذا السبب عانقتني؟».

عدّل جلسته بنفاد صبر، وقال: «أفترض ذلك».

وضعت صحنها أرضاً ونادته: «فيليب».

كانت المرة الأولى التي تناديه باسمه: «نعم؟».

فقالت كيت، وهي التي لم تكن تسمح للرجال بلمسها: «عانقني مجدداً».

بدت عيناه داكنتين، ومن دون أن يرف له جفن، وقف على قدميه، واستقامت كيت لتقابله، وفكرت لجزء من الثانية بأنها لا يمكن أن تفعل ذلك، وبأنها تجهل سبل الإقتراب من كائن بشري آخر من دون الارتعاش حتى... لكنها وجدت ذلك سهلاً. لم تأسرها ذراعاه كالفولاذ. كانتا حتماً أوثق لكن دافئتين ومرنتين كذلك، فغاص قلبها بين ضلوعها. همست باسمه ودنت منه أكثر.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ لا أحب الخداع

كان عناقاً طويلاً.

بدا رقيقاً ومفعماً بالثقة، ما جعل رأسها يدور. كان يمسكها بقوة فأحست بالدعم لا بالأسر، ومع أنه غريب عنها، شعرت به مألوفاً وكأنه قطعة منها. راح يدنيها منه برقة لا متناهية فشعرت بجسدها يذوب. كانت المرة الأولى التي يراودها فيها إحساس كهذا، وتسارعت أنفاسها. أحس فيليب بتغير فيها كما لو أنها انتعشت مجدداً بين يديه، وتفاعل جسده كله معها ثم تغلّب عليه المنطق. رفع رأسه قائلاً: «هذا... ليس متعقلاً».

بدت عيناها تحت ضوء الشموع المتراقص ساحرتين. قالت بتردد: «لا».

إلا أنها لم تبتعد عنه. قال بخشونة: «يجب أن نهدأ».

لم يبدُ عليها الإصغاء بل وضعت إصبعها على وجنته بخجل، كما لو أنها تتصرف للمرة الأولى على هذا النحو، غير واثقة تماماً من سماحه لها. بدت قريبة منه على نحو غريب فكادت دفاعاته تنهار، فأوقفها مغطياً يدها بين يديه. كانت قبضة ثابتة، قوية أكثر مما كان يعتزم، فسمع صرخة الألم المكتومة التي أطلقتها، وبدا عليه الندم فجأة: «آسف، لم أقصد إيذاءك ولكن...».

ـ أعلم...

اشتدت أصابع فيليب حولها حتى ارتجفت يدها غير أنها لم تصدر أي صوت هذه المرة. لم تكن كيت تفهم ما يحصل معها، لكنها لم تحفل. أما هو فبدا وكأنه يتخبط في دوامة إلا أن نظرة عينيه لم تتبدل. أرجعت رأسها إلى الوراء، فتلاعب ضوء الشموع بشعرها الذهبي، ورأت عينيه تتأملان تأثير الضوء على شعرها، فأدركت أنه وقع تحت سحرها، فابتهجت بشدة وقالت بصوت أقرب إلى الهمس رغم كونهما وحيدين: «عش الحاضر».

ابتسم وهو ينظر مباشرة في عينيها، فبدا ساحراً وقال هامساً هو أيضاً:

ـ هل هذا تحدٍ؟.

فقالت مازحة: «أخبرني أنت، فأنا لم يسبق لي أن تنزّهت مع رجل تحت ضوء القمر».

من أين استجمعت هذه الشجاعة لتجاريه على هذا النحو؟

لمس جفنها بلطف وقال: «ولكن...».

وأعقب ذلك دويّ وكأن شجرة هوت، فأجفلت كيت وقد بدت عيناها مذعورتين. التصقت به ولكنها هذه المرّة لم تكن تسعى إلى إغوائه، وقالت محاولة التمسك بهدوء أعصابها: «يبدو أن فخك قد أطبق على أحدهم».

استشف فيليب الخوف من صوتها رغم تصنعها الشجاعة. قال مطمئناً إياها: «لا بأس. إما إنهم يحضرون التحلية أو أنه رفيق المحارب. في كلتا الحالتين، أنا مسيطر على الوضع».

حرّر نفسه منها، وخرج بهدوء تام من المغارة. تبعته كيت حانقة، فتصنّع الغضب هو أفضل من السماح للرعب بالتسلل إليها، ويبدو أن ذلك هو الخيار الآخر المطروح أمامها. أسكتها فيليب بحركة من يده، وسبقها إلى الخارج. بدا حذراً وهو ينزل من جهة المنحدر وهي في إثره. كان القفص في طريقه إلى الأسفل، وقد وقف قربه رجلان ينتظران. أحدهما يحمل صينية نحاسية محملة بإبريق من القهوة العربية وزوجاً من الفناجين، وفكرت كيت أنهما من طاقم الفندق، وتنهدت بارتياح، إلا أن فيليب لم يسترخ بل أومأ

كما لو أنه كان يتوقّع ذلك، وقال: «هل تجيدين تسلّق الأشجار؟».

لم تسأله عن السبب بل ردت: «نعم».

ـ جيد.

واستدار نحوها: «أريد منك الذهاب وتسلّق الشجرة. لا تصدري صوتاً ما لم أقل لك».

ـ ولكن...

أجاب بلا مبالاة: «إنه تدبير احترازي. ربما يكون غير ضروري، وهو كذلك على الأرجح، ولكن أطيعيني ليهنأ بالي».

وابتلعت كيت ريقها قائلة: «ولكن ماذا سيحدث؟ أعني، ماذا عنك؟».

وبدا فيليب متفاجئاً: «أستطيع الاهتمام بنفسي فهذا ما أجيده».

نظرت كيت نحوه ورأت أنه يعني قوله. بدا هادئاً تماماً فقال: «هيا، هناك شجرة تين جميلة، تسلقيها».

كانت يداه باردتين على وسطها. هل كان هو الرجل نفسه الذي كان يحتضنها بقوة، مذيباً إياها بنظراته منذ دقائق خلت؟. هل كان هو من هزّها عناقه؟ هزت كيت رأسها مصدومة، وأحست بالقوة الكامنة في ذراعيه عندما ساعدها لتسلق الشجرة. تسلّقت ثلاثة أو أربعة أغصان، ثم جلست وأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة المريح، فيما كان يقترب شيئاً فشيئاً من قمة المنحدر. تمسكت كيت جيداً وتحضرت للبقاء جامدة للمرة الأولى في حياتها. استغرق وصول القفص دهراً وفور بروز سقفه القاتم، شلّها الرعب فتمنت لو أنها تستطيع التمسك بفيليب. ضمّت شفتيها معاً وامسكت أنفاسها حتى استعادت شجاعتها. بدا أحد الرجلين اللذين خرجا من طاقم الفندق، أما الرجل الآخر، فكان يرتدي سروالاً كاكي اللون وقميصاً قطنياً واسعاً للتمويه. بدا قوي البنية ويوحي بالعدائية. جمد فيليب أرضاً منتظراً وصوله وقال بهدوء: «مساء الخير، يا رفيق».

نظر إليه الرجل وقد ضاقت عيناه السوداوان بتهديد، فأحست كيت بالعرق يتصبب من ذراعيها العاريتين.

ـ مساء الخير أيها الإنكليزي.

فكرت بأنهما يعرفان بعضهما. لقد سبق أن التقيا، وهما يعلمان ماذا يجري هنا... بعكسها.

ـ ماذا تريد يا رفيق؟

ضحك الآخر وبسط ذراعيه على مداهما قائلاً: «قلت إنني سآتي لمحادثتك وهأنذا».

هز فيليب رأسه محجماً عن الرد: «هل أنت لوحدك هنا؟».

فقال رفيق: «هل تظن بأن رجالي سيصعدون من ذلك الممر لاختطافك؟».

لم يهتز فيليب بل سأله بفضول مهذب: «وهل سيفعلون؟».

أطلق المحارب ضحكة مشاكسة قوية: «تعجبني أيها الانكليزي. ولكن لا، ليس هذه المرة. لقد جئت للتحدث معك».

وسأل فيليب بتجرّد: «آه؟ لمَ إذاً يختبىء ثلاثة رجال وراءي تحت تلك النبتة المتعرشة خلف الممر؟».

ساد صمت مؤقت قبل أن يضحك المحارب، ويقول معلقاً:

ـ ألديك عيون في مؤخرة رأسك؟.

ـ كلا ولكن سمعي لا يشكو من شيء.

وبدا الخادم أكثر انزعاجاً، فأسكته رفيق بكلمة، ثم نادى رجاله الأشداء ليخرجوا من مخابئهم، فتقدموا بتحدٍ وكانوا يبدون أشراراً. لم يبدُ على فيليب أي إجفال فقال بصوته المهذب المعتاد: «مساء الخير».

ثم توجه إلى رفيق: «هل تريد أن ينضم إلينا أولئك الرجال في المحادثات أيضاً».

أعلن رفيق راضياً: «لا أحد سواي، فهم ينفذون ما أقوله».

وأدار رأسه إلى الرجال طالباً منهم العودة إلى الوادي عن طريق الممر، فقال فيليب بحزم: «ليس من هنا، أفضل أن تعودوا بالطريقة التي جئتم بها».

ورفع رفيق ذقنه: «أنت لا تثق بي».

واجها بعضهما البعض، أحدهما بغضب وسلاح ربما، والآخر بطول قامته وتماسكه، إلا أن كيت لم تتفاجأ عندما تراجع رفيق وقال بمزاج سيء: «حسن جداً».

مال برأسه نحو المصعد وفور صعود الرجال فيه، بدأ الخادم بإنزالهم. استدار فيليب قليلاً وعيناه مثبتتان على رفيق قائلاً: «يمكنك الاسترخاء، سنذهب الآن».

وأدركت كيت مصدومة، أنه كان يوجه الحديث إليها. بدا مختلفاً. كان عليه حتماً إظهار شيء من الاهتمام نحوها أو أقله مناداتها باسمها.

نزلت عن الشجرة واتجهت نحو الضوء فأعماها لبرهة. وقفت هناك، راغبة بالاحتماء بين ذراعيه، ولدهشتها، أدار فيليب لها ظهره.

لم تستطع كيت تصديق ذلك ورأت بعد أن اعتادت عيناها على الضوء، أنه أخرج الخلوي الصغير. فتحه وضغط على أزرار، فأجاب أحدهم.

ـ معك، هاردستي.

قال عبر الهاتف مضيفاً: «لا مشكلة فالجنرال رفيق وأنا قد التقينا. هل تستطيع ملاقاتنا؟ ثمة مصعد يأخذك من المنبسط لرؤية الشلال الكبير. ستجد ثلاثاً من رجاله هناك ونحن سننزل في غضون دقائق».

لم يكن كلام الرجل على الطرف الآخر من الخط مسموعاً، ولكن فيليب ابتسم: «كلا، إنها ليست بمشكلة».

وفكرت كيت أنه يتكلم عنها، فأحست برجفة تصل إلى عظامها. هذه هي إذاً قيمتها بنظره؟ ليست مشكلة! منذ عشر دقائق فقط، كانت بين ذراعيه، وأحست بالخزي بل بأسوأ من ذلك.

رفع نظره والتقى عينيها في الضوء الشاحب، فصدمت كيت من التعابير التي بدت على وجهه: عدم الاكتراث الكلّي، وكأنه لم يلتق بها أبداً في السابق. كان ذلك رهيباً وفاق ما فعله بها جوني، كيف كانت بمثل هذا الغباء.. منتهى الغباء؟ لقد عرّت نفسها أمامه، لذا فهو يعرفها الآن بشكل أفضل. ها هو الآن ينظر إليها بلا مبالاة مطلقة تحرقها كالجليد... تلك اللامبالاة!

وأنا من ظننته وحيداً! ودت لو تضحك عالياً ولكنها خشيت من أن تنفجر بعدها بالبكاء. فتوسلت أن يهبها الله قدرات ليزا في التمثيل حتى تتمكن من الابتعاد عنه. أنهى مخابرته وأغلق الهاتف معلناً: «لنذهب».

في الطريق المؤدي إلى الوادي وبينما هم في المصعد، كان فيليب يتكلم بصوت منخفض إلى رفيق. قبعت كيت في جوار الخادم بمنأى عن فيليب بقدر استطاعتها. لم تنظر إليه، وأبقت عينيها مفتوحتين تملأهما الدموع، وركزت انتباهها على الصينية النحاسية التي لم يلمساها. لدى وصولهما، انسلّت من القفص بهدوء.

لم ينظر إليها فيليب إذ كان عليه قطع محادثته مع رفيق لفعل ذلك، لكنه قال: «سأجد من يأخذك إلى أختك».

قالت كيت بصوت قاطع وقد بدأ الجليد يتنامى بينهما: «لا... لا، أنا بخير، شكراً سيد هاردستي».

لم يكن يصغي إليها وجال بعينيه بحثاً عن مرافقه: «أخشى أن علي الإصرار. فرناندو سيجد أحداً لمرافقتك».

ومنحته كيت ابتسامة مشرقة: «لمَ أحتاج إلى رفقة أحد؟».

رد فيليب ببرود قاطعاً كل اعتراضاتها: «أفضل ذلك».

وتملك الغضب العارم كيت. لكنه أمسكها من ذراعها وأخذها بمنأى عن رفيق: «أرجوك، اذهبي مع فرناندو».

قالت كيت مشتعلة من الغضب: «أنت لست عالماً طبيعياً. أليس

www.elromancia.com

كذلك؟».

ضمّ فيليب شفتيه وتردد، ثم أردف بإيجاز: «لا».

- إذاً كل ما قلته كان كذباً؟

وبدا مرهقاً ولكنه سرعان ما أخفى هذا التعبير وقال: «سيكون عليك أن تحكمي على ذلك بنفسك».

كانت كيت ترتجف غضباً وقالت بسخرية: «عظيم. سيكون عليّ أن أجتهد لأتبين الحقيقة».

لوهلة حسبت أنها أصابت الهدف، غير أنه استدار نحو فرناندو الذي كان يقترب منهما فحارت في أمرها.

قال لمعاونه: «هلاّ رافقت الآنسة روماني إلى غرفتها، فرناندو؟ لقد علقت معنا دون قصد منها. إعمل على ايصالها آمنة لأجلي؟».

وفكرت كيت ثائرة في أنه يعاملها ككيس ملقى أمامه.

وقفت مكتوفة اليدين بأسلوب دفاعي، وقالت بابتسامة مخادعة عريضة: «حسناً، هذه ليست بمشكلة، أليس كذلك؟ لا أحتاج إلى مرافق، شكراً. أراك في الجوار. عمت مساءً».

لم تتوقف عن الجري حتى غابت عن الأنظار. غضب فيليب من نفسه لأنه آذاها ولكن لا يمكنه القيام بشيء قبل أن يتأكد من أن رفيق لم يزرع رجالاً آخرين في الجزيرة. لو أنهم اعتبروا أنها تعني له شيئاً، فقد يختطفها هؤلاء المحاربون للضغط عليه والتأثير على قراره في مسيرة السلام، لذا فإن ادعاء اللامبالاة كان الطريقة الوحيدة التي أمكنه التفكير فيها حفاظاً على سلامتها. غير أنه لم يكن يتوقع منها ملاحظة ذلك، فهي لم تكن تعرف حتى ماهية وظيفته. لقد حسبت أنه يرفضها، والأسوأ من ذلك، ظنّت أنه استغل حضورها وبدت عليه لا مبالاة ساخرة. لم يعد بوسعه فعل أي شيء لتصحيح الأمور حتى يتم توقيع السلام وإقراره، ليصبح نافذاً. لقد أدرك الآن مدى حساسيتها. حاولت إخفاء ذلك ولكنه رأى عمق الأذى الذي

أصابها. منذ بضع ساعات، كان لديه فرصة معها ولكنها الآن قد ولّت. هي لن تثق به مجدداً. عليه أن يحاول طبعاً. سيراها ويشرح لها ولكن لاحقاً، مع أن ذلك قد يكون متأخراً جداً. حدث نفسه قائلاً: «واجه الأمر فيليب! يمكن لهذه الأمسية أن تكون خاتمة الأمور».

وقفت كيت تحت الدوش فبدأت مفاصلها تؤلمها، ولكنها لم تستطع فعل شيء حيال ذلك. كانت في حاجة إلى غسل همومها. لقد جعلت من نفسها غبية! كم كانت غبية!

وأملت بألاّ تضطر لمواجهته مجدداً.

دامت جلسة فيليب طوال الليل وتوقف حارسه عن لعب دوره، وذهب في مهمة عسكرية طارئة، ليبعث برسالة عبر جهاز الإرسال، وسرعان ما ازدحمت صالات الفندق برجال باللباس الحربي. توقف رفيق حينذاك عن التحايل، وأعلن مطالبه بوضوح تام، وأطلعه فيليب على الاتفاقية التي توصّلوا إليها، ثم توجّه إلى جناح أعده طاقم الفندق له على عجل. بعدها عاد فيليب إلى قاعة المؤتمرات، لأنه أدرك عدم جدوى الذهاب إلى الفراش، فهو لن يستطيع النوم، وسوف تدور أفكاره حول كيفية التصالح مع كيت.

عندما نهض المفاوضون في الصباح التالي، وجدوه مثقل العينين، ما فضح أرقه في الليل، وكان يضع يده على عينه اليسرى.

لم يهتم المفاوضون بتدهور صحة فيليب الجسدية فما يهمهم هو رفقته. قال فيليب ببرودة: «أيها السادة، أظنكم تعرفون الجنرال رفيق. وأنا مسرور للإعلان عن انضمامه الينا. أعتقد بأن ذلك مؤشر على بداية مرحلة جديدة من مناقشاتنا».

وبدأ مسار جديد في المفاوضات، فعلت الأصوات واشتد الصخب، وعندما كان يشتد الوعيد، كان فيليب يتدخل ويذكّرهم بالإنجازات التي تحققت حتى الآن. حافظ المفاوضون على ثبات موقفهم، فيما تعاقبت وفود

الصحافيين مجدداً إلى الفندق في فترة بعد الظهر، بعدما لاحت البوادر. لقد بات الاتفاق احتمالاً وشيكاً... بانتظار بعض الشكليات قبل توقيعه. حتى أن طاقم الفندق المسترخي ازداد نشاطاً.

أما ليزا ونيكولا فكانا يلزمان إطار التهذيب تجاه بعضهما في الكوخ، فيما كان فريق نيكولا يترقب نتائج مفاوضات السلام. ينبغي على كيت أن تكون سعيدة ولكنها لم تحفل بكل ذلك، فلقد كانت مشغولة جداً بأفكارها: أعظم مأساة في حياتك، عادية!...

مع مرور الوقت تمكنت من التفكير بأبعاد تلك الجملة، فوجدتها مشجّعة. ولو امكنها تخطي جوني الذي أخذ من حياتها زهاء ستة أشهر، لأمكنها إذاً نسيان رجل أمضت معه أقل من ست ساعات. ألا تستطيع ذلك؟؟ طالبتها ليزا بتفسير حول الأمسية السابقة، وحملتها على إفشاء سرها فصاحت: «هل هو الرجل الذي التقيته في أمسيتك الأولى؟ ذلك الرجل الجذاب؟».

كانتا جالستين تحت شجرة نخيل على الشاطىء. لم تنبس ليزا بكلمة عن نيكولا وعن انتفاء رغبته بها. في الواقع، كانت ليزا تسترسل في تحليلاتها، وقد ارتسم تعبير حالم على وجهها، ما جعل كيت تشتبه بأن أختها وصهرها قد تصالحا، ولم تجد داعياً للاستفهام عن ذلك، بينما لم تكف ليزا عن سؤالها عن ذلك الرجل المثير.

بعد قليل اقترب نيكولا منهما راكضاً على طول الشاطىء. بدا مليئاً بالحيوية وقال: «لقد أعلن هاردستي بأن المؤتمر الصحفي سيعقد خلال عشرين دقيقة. لا بد أنهم وقعوا المعاهدة».

ارتمى على الرمال قرب ليزا مبتسماً لها بحميمية: «سأبقى إلى جانبك من الآن فصاعداً يا حبّي».

شعرت كيت فجأة بأنها دخيلة، فالتقارب بينهما كان مشابهاً للنار الحارقة. لكن ما سمعته سمرها مكانها فردّدت: «هاردستي؟».

كان نيكولا ممسكاً بيد ليزا يحملها نحو شفتيه وقال بلا مبالاة:

- كبير المفاوضين.

- كبير المفاوضين!

يا إلهي! لم تجعل من نفسها حمقاء فقط، بل فضحت أسرارها. إنها عرّت نفسها حتى النهاية أمام كبير المفاوضين. عضت شفتها بقوة وصرخت متألمة. نظرت إليها ليزا بفضول، فقال نيكولا: «أنت لم تريه، فلقد كان منشغلاً طيلة الأسبوع مع الأطراف المتنازعة، وقد أتانا باتفاق لحماية الشعوب البدائية التي طالما قمنا بتمويلها. طبعاً هناك فرصة على الأقل لإيقاف انقراضها الآن».

- رائع!

قالت ليزا كما لو أنها لم تستطع بعد أن تتخلص من إهماله لها معظم أيام العطلة. شبك أصابعه بأصابعها قائلاً: «لقد دعته جماعة المحافظين إلى العشاء الليلة، وسيكون متفرغاً لنا كلياً لأننا نريد تقديم جزيل الشكر له».

سأل زوجته بلطف قائلاً: «هل ستأتين؟».

ابتسمت ليزا بطريقة لا تحتاج إلى إعلان للموافقة، فتأمل زوجته مطوّلاً قبل أن يقول: «عظيم. وأنت يا كيت؟».

قالت وقد بحّت حنجرتها: «لا، لا أعتقد ذلك».

قال نيكولا الذي لم يستطع الاسترسال في الكلام تحت وطأة نظرات ليزا الموجهة إليه: «سيكون ذلك مؤسفاً».

غير أن ليزا لم تذعن. استدارت نحو كيت عابسة: «ولمَ لا، بحق الله؟».

لم تكن مستعدة لذلك، فهي لا تملك إجابة جاهزة، لذا تمسكت بردها التقليدي القديم الواهي: «ليس لدي ما أرتديه».

فقالت ليزا مزهوة: «بلى، لديك. أعلم أن تاتيانا حملتك على إحضار فستان فضي، أنت أخبرتني بذلك. يمكنك إستعارة اقراطي الزمردية،

وسأرفع لك شعرك. ستكونين أجمل فتاة في الحفلة يا سندريلا».

اصطكت أسنان كيت ولم تجب.

ثم أظهر نيكولا ورقة مطبوعة وقال: «هاكم. بيان صحفي تبرع بطباعته أحد الصحافيين».

تناولته ليزا: «ماذا هناك؟».

فقال نيكولا: «إنه ضيف الشرف، فيليب هاردستي، منقذ الغابات الإستوائية».

وانكبت ليزا وكيت على قراءته.

«السير فيليب هاردستي أرستقراطي، من سلالة محاربين عملوا على دحر الجيش الإسباني، ويقول إنه يحق لنصف أوروبا أن تكره عائلته».

أسقطت كيت الورقة أرضاً قائلة بشحوب: «سير؟».

لا عجب في أنه بدا شاحباً عندما نادته بالسيد هاردستي. لقد نادته باسم خاطىء. لم تع ليزا أنها فقدت انتباه كيت، وكانت تقرأ تعليقات منتقاة عنه بصوت عال: «ذكاء خارق، مفاوض موهوب».

وتمتمت كيت: «سأقول...».

ولم تنتبه ليزا لكلامها: «كان المرشح الأبرز لتبوء مهمة في تتلخان، عندما أصيب رئيسه بأزمة قلبية».

وتابعت القراءة: «قدرات أكاديمية، وتتزاحم الجامعات لعرض وظيفة عميد في معهد الدراسات السياسية عليه، أما عن حياته الخاصة...».

وانحنت كيت فوق كتف ليزا مجدداً، وقد أمسكت أنفاسها فجأة.

- حالياً يتركز مقر إقامته في منزل العائلة في آشبرو - انكلتره وهو تحفة في عالم الهندسة من القرون الوسطى. لا يمضي فيه الكثير من الوقت مؤخراً. له صديقة في نيويورك، سوراليا خان تقول إنها لن تتفاجأ لو قام بتغيير جذري في حياته في الأشهر الآتية. ربما سيعود إلى حياة الريف في آشبرو لما

تبقى من العام. إنه رجل السلام لهذه السنة.

وتأوهت كيت: «منزل إقطاعي كذلك! لا عجب في حصوله على تلك الحاضنات».

كانت تلك القشة الأخيرة التي قضت على آمالها. فقالت ليزا من دون فهم كلامها: «لا تكوني سخيفة، ليست غلطته إذا كان قد ولد وهو يحمل لقباً إقطاعياً، فهو رجل محترم يؤدي وظيفة رفيعة تماماً كنيكولا. أمنعك من التعالي عليه أو الهزء منه».

وبدت كيت عنيدة، فقالت ليزا بمرح: «إنه ضيف الشرف في كل الأحوال، كما أن المدافعين عن الحياة البرية سيحومون حوله ولن يتسنى لنا الاقتراب منه».

فقالت كيت مسترخية: «آمل أن يصدق كلامك».

انسلت إلى القاعة وراء ليزا، باذلة ما في وسعها للاختفاء عن الأنظار كانت قد ارتدت الفستان الفضي الذي أبرز تفاصيل جسدها، كما أن الأقراط الكريستالية المتدلية على عنقها العاري أبرزت القبّة المنخفضة لثوبها. كانت تتنفس بارتعاش، وبدت عيناها مضطربتين، جل ما ابتغته هو الابتعاد عن النظر قدر الإمكان طيلة فترة مكوثها في القاعة وكانت تتوق إلى الاختفاء من الباب فور استطاعتها ذلك.

كانت ليزا محقة، ففيليب هاردستي.. السير فيليب، لديه أمور أهم منها الليلة. ولن يهدر وقته على حمقاء ساذجة قدمت له قلبها دون تفكير. أما هو، فقد وقف هناك بلباقة وبدا واضحاً أنه يدير دفة الحديث كالعادة. حينئذ، رأته ينظر حوله بحذر.

وما لبثت أن استقرت نظرته فالتقت أعينهما غير أن كيت أشاحت بنظرها. وتركت مكانها، وراحت تشق طريقها للابتعاد عن مرمى ناظريه، فاصطدمت بصهرها الذي قال بنبرة زهو: «ها هي!».

تجمّدت كيت من الرعب، إلا أنه أكمل: «خلت أنني أضعتك لدقيقة

هناك. ظننت بأنك تودين لقاء الرجل العظيم. هذا هو فيليب هاردستي. شقيقة زوجتي، كيت روماني».

وخطرت لها فكرة إحراجه. هل سيتحلى بالشجاعة للإقرار بأنه قد أخذها في رحلة إستكشافية؟ سيفعل. قال فيليب باعتدال: «سبق والتقينا كيت وأنا».

وابتسم لها، أما نيكولا فأصابه الذهول، وقابلت كيت عينيه القاتمتين الهادئتين، ففكر أنها ستنفجر غضباً. إلاّ أنها ردّت بحلاوة:

ـ حسناً، لم نلتق، أو بالأحرى، لم أعلم أنك الرجل الكبير. هل أغفلت عن ذكر ذلك؟.

وضغط نيكولا على شفتيه بصمت تام هامساً: «سأتأكد من أن ليزا قد حصلت على طعامها».

قالها بسرعة وعاد إلى الحشد. لم يلاحظ أي منهما رحيله. ردّ فيليب ببساطة: «آسف على ذلك».

كافحت كيت غضبها ولكنه كان أفضل من الإحساس بالغباء: «لمَ لم تقل لي؟ هل ظننت بأنني غبية لأفهم ما تقوم به؟».

وبدا مصعوقاً: «بالطبع لا».

ـ لمَ إذاً؟

ـ لأنني لم أرد ذلك على ما أفترض. لا أقوم بشيء عدا التحدث عن الصفقات والاستراتيجيات. رغبت في. . . .

قالت كيت محاولةً استعادة صوتها: «استراحة قصيرة».

ـ أجل، أفترض ذلك.

ـ وماذا أكون برأيك؟ تسلية ترفيهية لنهار واحد؟

صدم لاقترافه خطأً جسيماً: «لم أعِ مدى حساسيتك».

وهمّت كيت بالمغادرة إذ كانتَ شديدة الغضب، وقالت من بين أسنانها: «لست حساسة».

وما لبث فيليب أن اقترف خطأً أسوأ فقال بتعقل: «ولم توبخينني إذاً؟».

فقالت: «لا أحب الخداع. لم أسألك أبداً إطلاعي على أي شيء، لذا لم يكن عليك إخباري الأكاذيب».

وداعبت ابتسامة شفتيه فقال: «لم أفعل».

أخذت كيت نفساً مثقلاً وضاقت عيناها الخضراوان، فبدتا وكأنهما تنفثان سماً، وقالت بنبرة تهديد: «حسناً. ماذا كنت تنوي عندما ذهبنا إلى الشلال؟».

وانكمش: «ماذا؟».

ـ قلت حينذاك إنك لم تكن تنوي إغرائي. أصحيح؟

كانت شديدة الغضب لكنها لم تدعه يلاحظ ذلك، فقالت: «تلك الصحيفة كانت محقة عندما ذكرت بأنك مفاوض موهوب».

قال فيليب وقد بدأ يفقد برودته للمرة الأولى في حياته: «لم يكن الأمر كذلك».

لم تدرك كيت أنها كانت سبباً في هذا الحدث التاريخي في حياته فقالت: «أعرف ما كان عليه الأمر فلقد كنت هناك وجعلت من نفسي أضحوكة لتسليتك».

بدا شاحباً جداً: «أنت لا تعنين ذلك».

قالت: «حسناً، آمل أنك ضحكت جيداً».

وتابعت بمواربة: «إنها المرة الأخيرة التي تتمتع فيها بشيء على حسابي. عمت مساء».

لم تلاحظ كيت العيون المحدقة بها فيما أدارت له ظهرها، وتركت ضيف الشرف واقفاً لوحده وسط الحشد. لم تر ليزا تجري وراءها وتعبير القلق على وجهها. لم تر نيكولا يحاول إيقافها. عادت إلى غرفتها والغضب الأسود يعتمل في داخلها. وأخذت تذرع الشرفة والأفكار تتصارع.

كيف تجرأ؟ آه، كيف تجرأ على الكلام معها بتلك اللهجة الآمرة؟ هل كان يظن بأنه قادر على التحكم بها بالطريقة التي يتحكم فيها بالجميع. كانت السماء سوداء مخملية، ويمكن للمرء سماع غناء النجوم. وكانت أشجار النخيل تتمايل على طول الشاطىء وتهمس للنسيم. كانت ليزا محقة، فجمال المكان يسيء إلى المرء عندما يكون محطماً، ولقد كانت منهارة كلياً. لم تستطع أن تتذكر أنها أحست بشعور أسوأ من هذا. سمعت وقع خطوات على الرمل، وكأنها مجرد ضغط على الغبار، فالقادم غير مستعجل على ما يبدو.

وصل فيليب، متقدماً بنعومة في الظلام. كان يبتسم. كيف يجرؤ على الابتسام بعدما حوّلها إلى حمقاء؟ قال بهدوء:

ـ كيت، لا يمكن ترك الأمور على حالها.

قالت بوقاحة: «يمكنك فعل ما يحلو لك لأنني سبق وتركتها مهما تكن طبيعتها».

قال نادماً: «آه، حبي. لم أقصد أبداً إيذاءك».

وطرفت عينا كيت بشراسة، وقالت في سرّها إنها لن تبكي، وبأنها ليست تعيسة. إنها جاهزة للقتال ولكنها لن ترثي لحالها. قالت باقتضاب:

ـ أنت لم تؤذني وإياك أن تستعمل لفظة حبي مجدداً.

وساد صمت مفاجىء قصير، ثم قال بصوت متماسك: «لم أقم بذلك منذ وقت طويل. يبدو أنني أتفوه بكل الأشياء الخاطئة».

نصحته كيت بحدّة: «جرّب عمت مساء».

صعد الدرجات المؤدية إلى الشرفة، فوقفت في الأعلى تسد عليه الطريق. كان تصرفها صبيانياً، ولقد أدركت ذلك، ولكنها كانت ترتعش من الغضب ومن شيء آخر.. ذلك النسيم المعطّر، تباً له! هل تفوح منه رائحة اوراق الورد المتساقطة أم أنها مخيلتها الخصبة مجدداً؟ وأوما فيليب قليلاً واستدار بعيداً، ففكرت كيت أنه راحل. إلا أنه ما لبث أن تنحى جانباً

وقبل أن تدرك ما يفعل، قفز على الشرفة الخشبية. سخرت كيت منه رغم أنها حبست أنفاسها في الحقيقة: «آه، مؤثر. قرأت أنك تحب المحافظة على لياقتك».

تقدم نحوها في الظلمة بقامته المديدة وتعابيره الدافئة، قائلاً: «لا تبالي بما تقرأين. أصغي إلي».

وقالت كيت بعدائية: «آه، هل لديك قصة أخرى تريد نشرها؟».

غير أن فيليب توقف عن استرضائها قائلاً: «لا تكوني سخيفة فكل ما أخبرتك به هو الحقيقة. حسناً، لقد نسيت بعض الأمور. ماذا تريدين؟ بيان سيرتي الذاتية منذ موعدنا الأول؟».

وصرخت كيت شبه مذعورة: «ولكننا لم نتواعد».

فقال فيليب: «بلى».

وأخذها بين ذراعيه. كان الجو عابقاً برائحة الورد وهدير البحر. أم كان ذلك صوت نبضاتهما؟ تساءلت كيت ما إذا كان ذلك صوت نبضها أم نبضه؟ عندما عانقها قرب البحيرة، انزلقت من بين يديه كالماء خجلة أما الآن، فلم تعد خجلة. راح يهمس باسمها مجدداً ومجدداً كما لو أنه لا يستطيع التصديق بأنها بين ذراعيه.

خفق قلبها، أدارها نحوه فجعلها تعي مشاعره نحوها. ذهلت كيت لعمق المشاعر التي غمرتها، وتملّكها احساس رائع أفقدها آخر ذرة من تماسكها وانجرفت في عناق يخفي شوقاً جارفاً، وفجأة، أدركت أنها تحلّق وحيدة في عالم آخر. إذ ابتعدت رفعت رأسها وقد اعتراها القلق وسألته: «هل أنت معي؟».

آه، يا الله، لِمَ عليها دائماً أن تبدو مثيرة للشفقة؟

ـ أعني...

وضع إصبعاً على فمها وبدا صوته متحجراً: «أعلم ما تعنين. أريدك بشدة وربما بجنون ولكنني غير مستعد».

ثم أضاف وقد بدا متألماً: «علينا التحلّي بالمنطق. ستشكرينني في الغد».

غمرت الثقة كيت فأطلقت ضحكة ناعمة: «ولكنني أؤمن بأن يعيش المرء الحاضر. أتذكر؟».

أبعدها عنه كما لو أنها أحرقته وقال بحدة: «كفى».

حدقت فيه وقد تبخرت ثقتها العارمة في لحظات، وتحوّلت بشرتها الحريرية إلى غطاء جليدي وقالت بصوت صارم: «هلا رحلت؟».

نظر إليها كما لو أنها فاجأته. وعندما أدرك مدى حساسيتها، كان الوقت قد فات لإصلاح ما فعله فقال: «لم أقصد إيذاءك».

قالت كيت بلطف جليدي: «بلى، وداعاً».

دخلت الكوخ وأقفلت الباب. اتكأت إليه مرتجفة. لقد عانقها واحتضنها ثم تركها فجأة! لقد تجاوبت معه فسخر منها. لقد كان الوضع كابوساً مريعاً. اتصلت بليزا ونيكولا قائلة بعناد أذهلها: «أظن بأنه علي العودة إلى البيت. بما أن المؤتمر قد انتهى الآن، ستفضلين البقاء لوحدك مع نيكولا لبضعة أيام».

وماتت احتجاجات ليزا لأنّ كيت لم تحفل بها.

يمكن لليزا أن تنتف شعرها لكن كيت لن تمكث أطول من ذلك. لن تخاطر ابداً بمواجهة فيليب هاردستي مجدداً. لقد بقي لديها على الأقل ذرّة كبرياء وهي لن تتخلى عنها.

كانت تقف خارج بهو الفندق بانتظار وصول الهليكوبتر. كانت العصافير السماوية اللون تنقر بعض الفاكهة من الأرض. ارتاحت كيت لأنها كانت تضع نظاراتها الجديدة، فعيناها مغرورقتان بالدموع وقد حجبتا عنها الرؤية. ذهبت ليزا لإحضار مجلة تتسلى بها خلال الرحلة.

حاولت التركيز على العصافير فلم تستطع تذكر اسمها. همس صوت في أذنها: «كيت؟».

واستدارت. كان فيليب هاردستي مرتدياً بذلة رمادية وقميصاً مع ربطة

عنق من الحرير الناعم، بدا في قمة التألق والأناقة المهنية.

تراجعت كيت. فقال: «تركت لك رسائل».

ـ أعلم.

ـ ألا تريدين أن تدعيني أشرح لك على الأقل؟

قالت بحدّة: «لا أهمية للتبرير».

ـ بلى.

وانحنى إلى الأمام بصورة مفاجئة، وسحب نظاراتها قليلاً عن أنفها معلناً وكأنه يجيب على تساؤل لديه: «إنهما خضراوان».

حدّقت به واحتارت ما إذا كان عليها الشعور بالمهانة: «ماذا؟».

ـ عيناك، لم أكن واثقاً من لونهما.

وثارت كيت: «عيناي؟».

ـ إنك تبكين.

ـ بالطبع لا.

ولمس برقة زاوية عينها وأراها إصبعه المبلل.

عضّت على شفتها وقالت بلهجة دفاعية: «إنها الشمس التي جعلت عينيّ تدمعان».

قال بلطف مع أنه لم يصدق ذلك: «بالطبع. أعلم أنك لا تريدين الكلام معي يا كيت، ولكن دعيني أعتذر منك على الأقل».

انكمشت: «تعتذر؟».

كانت تأمل الا يتكلم عن تلك الأمسية في الكوخ معها فهي تستطيع التعامل مع أي شيء عدا ذلك لكنه قال بوقاحة: «لقد انغمست في لعبة المفاوضات مطوّلاً وأنا اعرف القواعد وسبل التلاعب بها، وأي ثغرة قد تسمح لشخص كرفيق أن يحاول التنصل من المفاوضات».

أرجعت كيت نظاراتها إلى مكانها، سعيدة للحماية التي تؤمنها:

ـ وهكذا إذاً؟.

www.elromancia.com

- أجل وإذا فشلت هناك، لن يكون هناك فرصة ثانية لإصلاح الوضع.

لامس وجهها كما لو أنه يعني له الكثير. لكنها تراجعت إلى الوراء فأسقط يده: «لقد عرضتك للخطر وأنا لا أسامح نفسي».

وذكّرته كيت وقد بدا صوتها صارماً: «لقد أخرجتني منه وأنا أسامحك».

- لا تفعلي ذلك، كان ذلك منتهى اللامبالاة وانعدام الاحتراف.

مطّت شفتيها بابتسامة خبيثة لشعورها بالإهانة: «لا تقلق بشأن ذلك».

- ولكنني أقلق، فأنا لم أكن منصفاً بحقك.

قالت كيت بحدة: «إسمع. لن أثقل ضميرك، حسناً؟ انتابتنا لحظة جنون وانتهت. إنس ذلك».

لم ييأس فيليب، وقال بسرعة: «إسمعي، إنهم يقومون برحلات على متن يخت تابع للفندق. تعالي معي ولنمض اليوم بأكمله معاً. ربما، أجعلك تفهمين».

كانت كيت تقرأ الجداول المعلقة في كوخها: «رحلة شهر العسل؟».

وتراجع فيليب: «أفترض ذلك».

- لا أعتقد.

- أرجوك.

ومنحها تلك الابتسامة الحلوة الدافئة التي تجعلها تشعر بأنها تعرفه حق المعرفة وبأنه يظنّها رائعة.

أردف بنعومة: «لأعوّض عليك نزهتنا التي أفسدت».

- سيظننا الجميع عاشقين ما لم يحسبوننا عروسين.

وهز كتفيه: «وماذا في ذلك؟».

فكرّت كيت في لا مبالاته التي تقتلها فقالت بدهاء: «ألا تبالي؟».

- ولِمَ علي ذلك؟

فصاحت به وقد فاق تصرفه احتمالها: «لأن ذلك ليس صحيحاً. هذا

المكان المجنون! إنه عالم خيالي وكل نزيل هنا يشتري حلماً. ورود ومخابىء للعشاق وشواطىء...».

فقال فيليب مرتبكاً: «ماذا؟».

وانتصبت أمامه، فبدت كليزا عندما يعتريها مزاج متعكر: «أتعلم ماذا يسموننا، أولئك البحارة والخدم؟ الرجل الإنكليزي وعروسه!».

وبانت ابتسامته الخبيثة: «وما السوء في ذلك؟».

لم تجب كيت، لم تستطع. تقدم خطوة إلى الأمام وقد انخفض صوته فبات كمداعبة: «هل يضيرك أن تكوني عروس الرجل الإنكليزي؟».

أحست كيت بأنها تلقت لكمة على معدتها فعجزت عن الكلام. شعرت بوجهها يغزوه الشحوب وقد بدأت الحديقة تدور أمامها، فمدت يدها بحيرة لتثبت نفسها ولم يكن هناك شيء لتتمسك به فكادت تهوى على الأرض.

- دعني وشأني! أنت لا تملك أدنى احترام لشخصي. أليس كذلك؟.

كانت صرخة أذعرت فيليب: «إنها مجرد سخافة».

فصاحت كيت: «لا تنعتني بالسخف».

قال مرتبكاً: «لم أفعل. أعني أنني فعلت ولكنني لم أقصد ذلك. كيت، يجب أن تصغي إلي».

قالت كيت من بين أسنانها: «دعني وشأني أو أنني سأفتعل مشهداً لا ينسى».

لم يتركها بل أطبق يديه على كتفيها، وانفجرت كيت بنوبة من الضحك.

هرولت ليزا في الممر ووضعت ذراعاً مؤاسية حولها وقالت لفيليب بلباقة: «لا بأس. سأهتم بها».

فتركها مكرهاً. عندئذ ولحسن حظها، وصلت الهليكوبتر فالتقطت كيت حقيبتها بيدين مرتعشتين وتوجهت نحوها، فيما كانت ليزا تتعقبها. أدخلت رأسها في الهليكوبتر فيما كان القبطان يسوّي أمتعته، إلا أنها عادت

www.elromancia.com

إلى ليزا وأمسكتها، فبدا على وجهها القلق وسألت: «كيت، ما الأمر؟».

فقالت كيت: «سأغادر الآن. وعندما أفعل، لا تذكري هذا المكان أمامي مطلقاً».

***

٦ ـ قلبي ليس من شأنك

سُرّت كيت لحصولها على العمل في بيمليكو طيلة موسم الربيع. إنها تحتاج فعلاً إلى الاختلاء بنفسها لتعود إلى توازنها. رغم ذلك، تخلّت عن سماع الشعر الحربي لأنه يُشعرها بالرغبة بالبكاء، واستعاضت عنه بدروس اللغة الاسبانية، مسجّلة على أشرطة.

لقد تجاوزت الأمر خلال أسبوع وأصبح المنزل لامعاً، وأدركت كيت أنها تستطيع الانضمام الآن إلى صفوف لتعلّم اللغة الاسبانية.

عادت ليزا لوحدها من كورال كوف، وبدت شاحبة بالرغم من سمرتها، وعندما سألتها كيت عن نيكولا، قالت: «آه، لقد تشاجرت مجدداً مع نيكولا. لقد ذهب لمشاهدة القردة. لا أعلم أين ولا أبالي».

ـ آه، ليزا، ماذا حصل؟ بدوتما سعيدين معاً.

وهزت ليزا كتفيها وقد تصلب فمها الزاهي: «هكذا تسير الأمور بيننا».

وبدأ القلق يعتريها: «وعلام اختلفتما هذه المرة؟».

وهزت ليزا رأسها بلا مبالاة: «عليك أنت في الواقع».

ولم تستطع كيت تصديق ذلك: «أنا؟ ولم بحق السماء؟».

ـ أعتقد بأن فيليب هاردستي ذاك، هو السيد الذي التقيته في المرة الأولى؟

www.liilas-romancia.com

وتوهجت كيت، فأردفت ليزا: «اعتقدت ذلك. حسناً، طلب معرفة عنوانك. نيكولا يعتقد بأنه رجل جيد وكان ميالاً إلى إعطائه إياه ولكنني قلت لا».

وبسطت أظافرها المطلية الطويلة: «لقد تخاصمنا».

أحست كيت بالأسف: «آه، لا، آسفة جداً. لا ينبغي عليكما التشاجر بشأني».

وأطلقت ليزا تنهيدة عميقة: «تباً، كيت، نحن نتشاجر على الدوام حالياً، وإن لم يكن بسببك فسيكون لسبب آخر. لا تقلقي بشأن ذلك. أشكر الله أن لنيكولا قردته فأنا لدي وظيفة جديدة، ولن نرى بعضنا لفترة. ومع القليل من الحظ، ستهدأ العاصفة».

وسألت كيت شاعرة بعقدة الذنب: «وإذا لم تهدأ».

رفعت ليزا ذقنها وبدا صوتها كالفولاذ: «عندها، ندرج على لائحة المنفصلين».

وعضت كيت شفتها، فرقّ صوت ليزا وعانقت أختها بسرعة: «لا تكوني هكذا. أنا لست كوالدتي. سأتغلب على الوضع».

بعد ذلك، لم تعد أي منهما تأتي على ذكر كورال كوف ثانية، حتى عندما اجتمعتا في منزل والدتهما الريفي لتناول الغداء نهار الأحد. راحتا تتحدثان عن الطقس، والشمس، والرمال والبحر ولم تذكر أي منهما اسم رجل.

قالت فلورا ستيفنس، عرابة كيت التي كانت هي أيضاً مدعوة ذاك الأحد: «هل ستخبرانني بما حدث؟».

أجابت كيت وهي توضّب الصحون: «ماذا تقصدين؟».

قالت فلورا بصراحة: «يبدو أنك وليزا متكتمتين جداً، حتى أن والدتك لاحظت ذلك وعلقت على الموضوع. هل تشاجرت ليزا مع نيكولا؟».

صاحت كيت تحت تأثير الصدمة: «فلورا!».

وقالت فلورا من دون أن تذعن: «إنه رجل جذاب، وإذا كانت ليزا تصرف معه بجفاء، فمن يلومه؟».

أكدت كيت بحزم بأن شكوك فلورا لا أساس لها وأن الأمور على ما يرام، غير أنها قطبت: «إنها تبدو غريبة، أليس كذلك؟».

وبدت فلورا حكيمة وقالت ثائرة: «ربما. ماذا عنك؟ يبدو أن هناك رجلاً ما!».

قالت كيت غاضبة: «أنت أشبه بمحقق. هل يجب أن يكون هناك رجل؟».

ـ عندما تبدين أنك تعيشين على كوكب آخر معظم الوقت، فهذا هو التفسير الطبيعي، أجل. أما في حالتك فلقد توقفت عن القفز لدى مرورك أمام المرآة. أعتقد أنك شفيت.

تأملتها كيت غير واثقة ما إذا كان عليها الضحك أم الجري، وفي النهاية قالت متأثرة: «لقد كانت جلسة الاستجواب تقريراً».

وداعبت فلورا خصلات الشعر الذهبية بمحبة: «حسناً لن أسألك شيئاً».

ـ جيد لأنه ليس هناك ما يقال.

ونظرت فلورا إليها بإمعان: «هل أنت راضية؟».

لم تدّع كيت بأنها أساءت الفهم، إذ كان لديها تاريخ من الرفض، وكانت فلورا أحد الأشخاص القلائل الذين يدركون ذلك إضافة إلى ليزا ووالدتها. قالت بجفاف: «لن أقفل على نفسي الغرفة ولن أرفض الأكل إذا كان هذا ما تسألينه».

ردّت فلورا بواقعية: «قلت إنك تغلبت على المسألة منذ ثلاث سنوات وأنا أصدقك، ولكن، يمكنك أن تتأذي الآن. أليس كذلك؟».

وابتلعت كيت ريقها فجأة: «نعم».

قالت فلورا برقة: «كفى الآن. لا مزيد من الأسئلة! ولكن إذا ظهر ذلك الشاب مجدداً، أحضريه لأراه، إذ ينتابني الفضول للتعرف على الرجل الذي تمكن من إيقافك عن الابتعاد عن المرايا».

رفعت كيت وجهها مبتسمة. وفي طريق العودة بسيارة ليزا، قالت متأملة: «أظن بأنني سأضع مرآة في البهو. واحدة من الطراز الكبير الذي ترينه في فيلم دراكولا».

نظرت إليها ليز بتعجب ولكنها اكتفت بالقول: «سنبحث عن واحدة في العطلة القادمة».

عثرتا على واحدة في سوق شارع بورتو بيللو وأمضتا فترة ما بعد ظهر الأحد تحاولان تثبيتها على الحائط تحت إشراف تاتيانا، التي صاحت بهما: «أيعقل ألا تعرف شابتان مثلكما تعليق مرآة كهذه؟ تحتاجان إلى رجل ليساعدكما».

أجابت الشقيقتان معاً: «كلا، لا نريد».

ثم نظرتا إلى بعضهما البعض وضحكتا. لم تر كيت ليزا كثيراً بعد ذلك النهار، إذ كان عمل ليزا الجديد يتطلّب منها السفر الكثير، فيما كانت كيت تخرج مساء كل ليلة تقريباً، وتوزعت أوقاتها بين دروس القيادة وحياتها الاجتماعية المزدهرة.

كانت تتوقف يومياً في طريقها إلى العمل وتنظر إلى نفسها في المرآة تلقائياً، فبما أن الجميع ينظر إليها، يجب عليها أن تنظر هي أيضاً إلى نفسها. أحياناً، كانت تتبرج وتستمتع بالرقص. ومع أنها لم تكن تواعد أحداً، إلا أنها لم تعد ترتعب في كل مرة يقترب منها رجل.

شغفت بالعلاقات الدولية وباتت تشتري صحفاً وتقرأ الصفحات الدولية، كما ذهبت أيضاً إلى المكتبة وبحثت في الانترنت. كانت الكثير من المواقع تتحدث عن إنجازات فيليب هاردستي. اكتشفت كيت صدفة ثلاثة مقالات تذكر سورواليا خان. كانت تعمل كخبيرة في إحدى شركات النفط

وقد قامت بدراسة مفصلة عن أسعار النفط العالمي وتحركاته، كما أجرت لقاة فضائية مقابلة معها عندما توقفت إحدى دول الخليج عن تصدير النفط. وقد ملأت صورها الصحف لمناسبة حضورها حفلاً خيرياً، لأنها تنتسب إلى إحدى الجمعيات، وقد بدا لكيت أنها تستحق فعلاً هذا الاهتمام.

كانت سورواليا خان آية في الجمال، فهي طويلة القامة ونحيفة كغصن البان، ولقد بدا ثوبها الأبيض الفاضح صاعقاً بدلاً من كونه مبتذلاً.

أطفأت كيت جهاز الكمبيوتر وهي تقول لنفسها بأنها سعيدة لعدم تلبيتها دعوة فيليب هاردستي إلى تلك الرحلة، فسورواليا ليست من النساء اللواتي ترغب أي امرأة بأن تكون غريمتها لتتحداها. إلى جانب ذلك، هناك صورة واحدة فقط لها مع فيليب. وتعرفت كيت على تلك النظرة الباردة والمبرمجة التي ارتسمت في عينيه. ربما لم يكن في مزاج جيد عندما التقطت الصورة. لم يشكل ذلك فرقاً، فهما لا يزالان ثنائياً مثالياً، فكلاهما مدهش وجذاب وهما متلائمان جداً. من الجيد أن كيت لا تتوقع رؤية فيليب هاردستي ثانية، وهي لن تفعل ذلك. لن تفعل!

وحل موسم الربيع، واستنشقت كيت عبير البراعم المتفتحة على الأشجار في الحدائق المنتشرة وراء المنزل، فأعلنت لتاتيانا أنها تفكر في شراء بعض الملابس الجديدة.

علقت تاتيانا وعيناها تلمعان مرسلة شرارات: «أتريدين أن يرافقك أحد عندما تذهبين للتبضع؟».

فأقرت كيت ضاحكة بأنها لا تمانع. ولاحظت تاتيانا أن هناك أمرين مريبين في تصرفات كيت، وقد اخبرت ليزا التي اتصلت بها من زوريخ بأن كيت كانت تترك المجيب الآلي شغّالاً لتستطيع مراقبة المتصلين بها، كما أنها كانت تهرع كل صباح لتفقد البريد، ولكن يبدو من الواضح أن ما كانت تتحرق له، لم يصل أبداً. لذا كانت تبدو خائبة لدى عودتها، فقالت تاتيانا

برزانة: «إنه رجل بلا شك».

لم تشاطرها ليزا رأيها، إذ كانت تدرك مدى الإحباط الذي قد تشعر به كيت إذا ما أحبت ولم يكن حبّها متبادلاً. فما من إشارة تدل على كونها مغرمة.

سألت ليزا: «هل هي.. بخير؟».

فقالت تاتيانا بصراحة: «إنها تعيش عمرها أكثر مما مضى. يبدو أنه يمكن لعلاقة حب مأساوية أن تكون حافزاً للتقدم».

في اليوم التالي، كررت تاتيانا ملاحظتها لكيت عندما انطلقتا للتسوّق. حدّقت كيت بها لنصف دقيقة قبل أن تقول: «آه، شكراً. أنت عزاء كبير».

لم تكن تاتيانا جيدة في التقاط الاستهجان: «على النساء أن يتحلين دائماً ببعض الخبرة في تفتيت القلوب فهذا يمنحهن غموضاً».

وانفجرت كيت ضاحكة: «هيا هيا يا صاحبة التجربة. لست ألعب دور غادة الكاميليا. أريد فقط ابتياع ثياب صيفية».

وبان على تاتيانا الفضول: «هل تقولين لي إن قلبك ليس محطماً؟».

وفكرت كيت بأنها تعلمت أمراً واحداً من المخادع فيليب، وهو استعمال الخيال، فعندما كانت تاتيانا تحشرها قبل رحيلها إلى كورال كوف، كانت إما تهرب أو تثور غاضبة. أما الآن فأجابتها بهدوء: «قلبي ليس من شأنك تاتيانا، سواءً أكان محطماً أم لا».

وبدت المرأة الأكبر سناً مبتهجة: «أتحرّق شوقاً للقائه».

حتى أن كلاماً كهذا، لم يثن كيت فقالت بسخرية: «محاولة جيدة. والآن دعي ذلك جانباً أو سأذهب للتسوّق بمفردي».

فقالت تاتيانا: «آه، لا، ستبتاعين ألواناً فظيعة. سآتي ولن نتحدث عن هذا العاشق الغامض إلى أن ترغبي بذلك».

* * *

جلس فيليب بهدوء على الكنبة المريحة وانتظر نتائج الفحوصات،

فالإختصاصي كان ذائع الصيت في نيويورك، إلا أن فيليب لم يكن يتوقع أنباءً سارة. جلس طبيب العيون على زاوية مكتبه يتلاعب بقلمه على الملف الذي كان يدرسه فقال فيليب: «أخبرني الحقيقة. أستطيع التعامل مع أي شيء».

أومأ الطبيب قائلاً بشرود: «الحقيقة هي أحجية معقدة. سأكون صريحاً سير فيليب. لست أدري ما الذي يجري هنا».

وقطب فيليب، لأن الوضع لم يبدُ له صراحة بل محاولة غير ضرورية لتلطيف الخبر على المريض، فاستفسر: «ماذا تعني؟».

ـ هذا العمى المؤقت في عينك اليسرى، أتبينه وأعلم بحدوثه. إنه ليس عاملاً نفسياً، لأنني أستطيع تحديده، غير أنه لا يوجد مبرر جسدي لحصوله.

لقد كان ذلك آخر شيء يتوقعه فيليب: «ماذا؟».

ـ إنه يأتي على دفعات وهذا غير اعتيادي. فلا إشارات واضحة، لا قبل ولا حتى خلال هذه المرحلة. أقلت إن أحداً لم يلاحظ ذلك؟

ـ هذا صحيح.

وعقد الطبيب ذراعيه: «أترى، إنه أمر في غاية الغرابة. أعتقد أن عينك تحجب الرؤية لأنها تريد أن ترتاح ولهذا تتوقف عن العمل».

تأمّل فيليب في كلامه: «هذا ليس منطقياً».

وعبس الطبيب: «أنت محق فهذا جنون ولكنه ليس مستحيلاً. إنه نادر جداً ولكنه قد يحصل. لقد اكتشفت إثنتي عشرة حالة في العالم».

فابتلع فيليب هذا الكلام: «إذاً، ما هو العلاج؟».

ـ يرتبط بالسبب الكامن وراءه. إذا كان الضغط هو السبب، فلديك فرصة لاستعادة بصرك طالما تبتعد عمّا يسبب لك هذا الضغط بالطبع.

سأل فيليب بتهذيب: «كوظيفتي مثلاً؟».

ـ لقد قلتها أنت، لا أنا.

ونظر فيليب إلى أسفل: «هذا سهل».

www.elromancia.com

نهض الطبيب من جلسته قائلاً: «الأمر يعود إليك فأنت تفعل ما يحلو لك، فليس هناك من علاج أو دواء. سأخالف مهنتي إذا ما قلت لك العكس».

ابتسم فيليب وأومأ برأسه، من دون أن ينطق بكلمة. فرقّ الطبيب لابتسامته، كما يفعل الجميع باستثناء كيت روماني كما فكّر فيليب. الفارّة كيت روماني التي لم ينجح ثلاثة محررين في العثور عليها حتى الآن.

- إسمع إنه ليس شأني ولكن من الواضح أنك كنت تجهد نفسك لسنوات. فلم لا ترتاح قليلاً؟

تنهد فيليب وقال بجفاف: «أن أعيش اللحظة؟ لقد حثّني أحدهم مؤخراً على القيام بذلك».

وهز الطبيب رأسه بلا مبالاة: «يمكنك المحاولة».

ضحك فيليب فجأة: «لو أمكنني فقط استنساخ نفسي».

- عندها، لن يكون بوسعي فعل أي شيء. استمر على هذا النحو وستسوء الأمور أكثر.

قال فيليب: «شكراً».

نهض وصافحه ولكنه كان لا يزال يبتسم عندما ابتعد عن المبنى. عش ليومك! هل يمكنه ذلك؟ ربما، لو وجد فتاته مجدداً، ولكن تحريات معاونه لم تجد نفعاً حتى الآن، وليس لديه الوقت للبحث عنها بنفسه. ماذا لو قام الآن بذلك؟ ماذا لو عاد إلى مكتبه وتابع البحث حتى يجدها؟ هل سترغب برؤيته مجدداً؟ وإذا لم تفعل، هل يستطيع إقناعها؟ ابتهج للفكرة، ولكنه ثار غضباً بعد ذلك فقال لفرناندو: «أنت لم تحاول حتى».

قال معاونه مدافعاً عن نفسه: «لقد وجدت صهرها، حتى أنني أرسلت له برقية».

أجاب فيليب غاضباً: «هكذا إذاً؟ إنه خارج البلاد يراقب الغوريلا. ستنتهي البرقية في سلة المهملات أو قد تستغرق أشهراً لتصل إليه. ألم تفكر

بذلك؟».

تمتم فرناندو: «إن تعقب صديقاتك لا يدخل ضمن وظيفتي».

انكمش فيليب وقال باعتدال: «لا، أنت محق، ولكن لو كان لديك أي اعتراض، لكان عليك أن تقول لي ذلك، لكنك لم تفعل، لذا كان عليك إظهار المزيد من النشاط. والآن اخرج».

وخرج فرناندو مرتعشاً، إذ لم يسبق لفيليب أن أبدى عدم رضاه عنه من قبل. وكل هذا بسبب فتاة، لم يعلم حتى أن فيليب مهتم بها. وفكّر: ما الذي ستقوله سورواليا بهذا الشأن؟

لقد مضى وقت طويل على قيام فيليب بأبحاثه بنفسه، لكنه سرعان ما عاد إلى الجو وبدا تحرياته. إذا كان عاجزاً عن الاتصال بصهرها فهو سيعمل على إيجاد أختها. صحيح أنها لم تبد مساعدة في كورال كوف ولكنها على الأقل لا تمكث في الأدغال تراقب القبائل البدائية مع زوجها. وجد لائحة المستكشفين على الانترنت، وبعد البحث والتدقيق، وجد أن الكونتيسة ليزا إيفانوف هي ليزا روماني التي عينت حديثاً رئيسة لغرفة التجارة. ابتسم والتقط السماعة: «سورواليا؟ يسرني سماعك. إسمعي. أريد منك خدمة. من تعرفين في لندن؟».

* * *

لطالما استمتعت كيت في متجر آل هندرسون. إنه مكان حيوي مزدحم، فكل زاوية وطاولة فيه محشوة بالكتب، النادرة منها والشعبية، الجديدة والمستعملة. نظام التوثيق كان الأكثر صعوبة، لأن الكتب كانت تستقدم وتباع بسرعة عند آل هندرسون، إلا أن جميع المعاونين كانوا يدركون بالضبط موقع أي كتاب. كانت كيت هي الفرد المؤقت الوحيد بين العاملين، والذي لديه كفاءة توازيهم. سأل آلن عندما حضرت إلى العمل صباح الإثنين: «كيف يجري برنامج التحسين؟».

ردّت كيت: «أنا أعمل على أنواع الطيور في جنوب غربي آسيا حالياً».

www.elromancia.com

لم تكن تريد أن تنسى «كورال كوف» مطلقاً، رغم أنها لا تريد التكلم عن ذلك حسبما اكتشفت. كان عليها أن تتعرّف على بعض الطيور التي رأتها هناك وعلى طيور أخرى لم يعطها من زوّدها سابقاً بالمعلومات أسماءها، ورفع آلن حاجبيه: «متأثرة بصهرك، لا؟ إذاً، ستذهبين إلى الحفلة الاستوائية الراقصة، طبعاً؟».

تنبهت كيت: «أنا أقرأ فقط بعض الكتب، ولكنني لم أنضم إلى الجمعية بعد».

وعبس آلن: «لن يتبقى غابات خلال مئة سنة ما لم تدعميها».

شعرت كيت بالإهانة: «إنه ابتزاز اخلاقي».

قال بمرح: «أجل، ستقام الحفلة في السبت الأخير الذي ستكونين فيه هنا. ستكون هدية الوداع التي ستقدمينها».

بدت متألقة، ومتحمسة للفكرة، مع أنها لم تتفوه بكلمة.

قال آلن وهو يثرثر: «قولي: أشكرك جزيلاً يا آلن، وأود المجيء معك، لقد وضعتني تحت الأمر الواقع».

قالت كيت بصراحة: «لا تستطيع إرغامي حتى ولو أغرقتني بالهدايا».

كان آلن في السبعين من عمرهُ لا يصل طوله إلى كتفيها. راح يضحك موافقاً. تلك الحقيقة لم تشكل فارقاً بالنسبة لتاتيانا، التي أعلنت ضرورة أن ترتدي كيت فستاناً راقصاً متكاملاً فقالت كيت وهي تجهل كل شيء عن الحفلات الخيرية: «أليس ذلك قديم الطراز؟».

فقالت تاتيانا: «آلن هندرسون قديم الطراز. سنشتري واحداً في عطلة الأسبوع».

تذمرت كيت، ولكنها وافقت في النهاية. لقد كانت متحمسة للحصول على فستان رسمي، فالفستان الوحيد الذي سبق أن ارتدته كان ذاك الذي استعارته من تاتيانا في كورال كوف.

أخذتها تاتيانا في جولة إلى متاجرها الفخمة المفضلة، لكنهما لم تجدا

شيئاً. كانت تاتيانا تميل إلى التنقل من متجر إلى آخر لتعود بعد ذلك وتجرّب وشاحاً، أو حقيبة كانت قد رأتها في آخر... بدأت كيت تتساءل ما إذا كان عليها إيصال تاتيانا إلى المنزل والبدء من جديد بنفسها، عندما لمحت بريق ثوب باللونين الأزرق والأسود، فجذب انتباهها فقالت: «ما هذا؟».

ردّت تاتيانا بعفوية: «ليس الأزرق، فالشقراوات يعتقدن دائماً أن باستطاعتهن ارتداء الأزرق في حين أنه لا يليق بهن».

لكن كيت لم تبالِ بذلك، بل راحت تتفحص الثوب بحماسة لم تظهرها أبداً طيلة النهار. عندما أخرجته، بدا ثقيلاً بقماشه الساتان الأسود المزين بفراشات صغيرة باللون الوردي، والبنفسجي الفاتح، والأزرق البحري، ثم قالت كيت خائبة: «آه، فيه ثقب».

دفعتها تاتيانا قائلة: «يمكن إصلاحه. لديك عين خبيرة أكثر مما ظننت».

تعززّت شكوك كيت عندما رأته العاملة التي كانت ستصلح القماش. بدت المرأة حذرة عندما أرتها تاتيانا الفستان، فهمست كيت في أذنها: «دعيه، كانت فكرة جيدة ولكنه ثوب متهدل».

ورفضت تاتيانا الإذعان.

قالت كيت في الطريق إلى المنزل: «حسناً، لدينا ثوب لم يكلفنا إلا اليسير وهذا جيد، إلا أنني لا أستطيع ارتداءه، فهو قديم وغير لائق. لذا، سأذهب للبحث عن شيء آخر الاسبوع المقبل، ولا يمكنني الذهاب قبل الخضوع لامتحان القيادة الثلاثاء».

وبدأ الرعب يزحف إلى صوتها، ولكن تاتيانا لم تتأثر: «هناك الكثير من العمل لإصلاحه وهذا كل شيء. سأقوم بتعريفك على عاملة التطريز».

وفي النهاية، بدأت كيت تستمتع بالفكرة. فهذه هي المرّة الأولى، التي ترتدي فيها ثوباً وترغب أن تراه على المرآة. وعندما حل السبت، بدا الفستان تحفة فنية، كما كانت كيت قد نجحت في اختبار القيادة أيضاً. وقالت:

«إجازة في القيادة وفي تحطيم القلوب».

واستدارت أمام مرآتها الضخمة متسائلة: ماذا سيقول فيليب هاردستي لو رآها هكذا؟ وردّدت كلمته: دعي زميلي يرافقك إلى الكوخ... وصرت كيت أسنانها لمجرد رؤية انعكاس صورتها في المرآة.

* * *

قالت تاتيانا وهي تنظر إليها بإمعان: «هذا الفستان هو كل ما تحتاجين ولكنك ستضطرين إلى القيام بشيء لشعرك. هل ستدعينني أرفعه لك؟».

وكانت كيت فرحة جداً فوافقت. كان الفستان أبسط ما يمكن، عاري الكتفين، أما ألوانه المتلألئة فقد جعلتها تبدو أشبه بغزالة أو بطائر آسيوي، كما فكرت كيت وهي تمسّد قماشه المتهدل بأصابعها الرقيقة. لم تخبر تاتيانا لما تمسّكت بالثوب، إذ فضلت التكتم على سرها مع فيليب هاردستي. عندما نظرت إلى نفسها في المرآة قبل أن يأتي آلن هندرسون لاصطحابها، وجدت نفسها تتمنى من كل قلبها لو يستطع فيليب رؤيتها بهذا الشكل، بشعرها الذهبي المرفوع وبشفتيها المصبوغتين بلون أحمر مغرٍ. بدت مخلوقة مثيرة بعيدة عن الغبية الساذجة التي التقاها في كورال كوف. هل سيكون قادراً على مقاومتها الآن؟ حسناً، هي لن تعرف ابداً الجواب، وقد سرت كيت بينها وبين نفسها لذلك، غير أن ردة فعل آلن قد أثلجت صدرها، حين قال بوقار: «سأرافق المرأة الأكثر إثارة في الحفل».

احمرت كيت من الخجل لكنها ضحكت مسرورة وقالت: «بدأت أشعر بما أحسته سندريلا. لنذهب».

* * *

كان فيليب على وشك الامتناع عن الذهاب إلى الحفل، فلقد وصل إلى لندن البارحة وكان عليه الذهاب إلى منزله الريفي في اليوم التالي، فثمة أمور أجلّها لمدة طويلة، وعليه ان ينجزها، قبل أن يركز انتباهه على ملاحقة فتاته. تمدد على ظهره في غرفة الفندق الفخم التي بالكاد لاحظها، ووضع

يديه خلف رأسه، حين اتصل به أحد المعارف قائلاً: «إسمع، سير فيليب، ستقام حفلة لدعم الغابات الاستوائية الليلة، وآل إيفانوف هم داعمو الحفل، وسيكونون هناك كما أن الكثير من معارفهم سيحضرون الحفل. ربما يعلم أحدهم عنوان شقيقة زوجة ابنهم. لقد حجزنا طاولة ويمكنك الانضمام الينا إذا أحببت».

وغاص قلب فيليب. لقد نال حصته من الحفلات الخيرية في مجتمع نيويورك المخملي، وهو لن يستمتع حتماً بذلك، إلا أن الرجل كان يحاول بصدق المساعدة، وقد نفدت الأفكار من فيليب. وافق في النهاية، وتطلع بحزن إلى تلك الأمسية المملة.

قبل كل شيء، كان عليه استعارة سترة رسمية لأنه لم يحضر معه واحدة إذ لم يخطر له أنه سيحتاجها. لقد وضّب أغراضه بسرعة وعندما قرّر الذهاب إلى لندن للبحث عنها، جلب معه القليل من الحاجيات. لم يتعرف فيليب على ذلك الرجل العفوي الذي أصبح عليه، فهو عادة يخطط حتى للوقوع في الخطأ. عندما كان يسافر، كان يقوم بجردة لكل ما قد يحتاجه، إلا أنه الآن في الفندق الأكثر فخامة في لندن ويحمل حقيبة واحدة. والتوى فمه بابتسامة غريبة، فالعيش يوماً بيوم سيكون تحدياً أكبر مما راهن عليه.

في البداية، طابقت الحفلة كل توقعاته المتشائمة. كان أصدقاؤه المصرفيون لطفاء ولكنه لا يعرف أحداً منهم. لقد رحبوا به ولكنهم كانوا يجهلون بما يحدثونه، وانتهى بهم الأمر إلى سؤاله عن عمله، وبدأ فيليب يشعر بأنه عاد إلى مهماته. عندئذ نظر إلى أعلى ورآها. لقد رآها...!

لم يخطر في باله أن كيت ستكون هنا. إنه آخر مكان يتوقع رؤيتها فيه، فتاته الخجولة. لقد ظنها وحيدة وحرة، ففي مخيلته، كانت تجري في ممرات الغابة أو تلعب بمرح في المياه. لم تكن ترقص وتضحك كما الآن وسط جمهور مزيف ومتأنق. لم يستطع فيليب نزع عينيه عنها وكانت هذه حال سائر الرجال في القاعة. بدت مختلفة ومثيرة بطريقة ما. ما زالت مليئة

بالحيوية والمتعة ولكنها محملة بالأسرار، ففكر بأنه لا بد من وجود سر جديد، إذ لم يكن هناك تحفظ في عينيها عندما احتضنها بين ذراعيه في كورال كوف. وارتعش جسمه لذكراها.

كانت ترقص بلا وعي تماماً كما تسبح، وكانت رقيقة كالمياه. أحس فيليب بالعرق يتصبب من مؤخرة عنقه. كانت تضحك لشيء قاله شريكها، ومع ذلك هناك شيء ما فيها يوحي بالوحدة المفرطة. لم ينتبه فيليب أنه كان يتقدم حتى انتصب على قدميه، وقالت جارته وقد أساءت فهمه: «شكراً، أود أن أرقص».

وأجفل فيليب ونظر إلى أسفل. ابتسمت المرأة له بتهذيب ونهضت، إذ بدت كأنها تؤدي واجبها، فضحك رغماً عنه ومد يده قائلاً: «عظيم، ربما يمكنك أن تقولي لي بلطف من هم أولئك الناس».

فتجهمت: «لا أعرف الكثير».

ولكن اتضح بأنها تعرف الرجل المسنّ الذي كان يحمل كيت على الضحك بطريقة غير اعتيادية: «آلن هندرسون، يملك واحدة من أفضل المكتبات في لندن. لا أعرف الفتاة. إنها جميلة، أليس كذلك؟».

فأجاب فيليب بفخر: «أجل».

عندما انتهت رقصتهما، خرج إلى البهو وراح يتفحص المقاعد. كانت كيت جالسة إلى طاولة أحد الناشرين، ويبدو أنها قد جاءت برفقة السيد هندرسون. وتذكر فيليب أنها تعشق الكتب، حتى أنها كانت تود أن تدير مكتبة. ربما كانت دعوة مهنية رغم أن ذلك لا يتوافق مع شخصيتها. لا يمكنها أن تهتم بأي رجل آخر. لا تستطيع طبعاً، فهي له! وبدأ يذرع الغرفة من دون توقف باحثاً عنها.

***

أما كيت، فلم تكن لتصدق بأن حفلة رسمية على هذا الشكل قد تكون مسلية، فالجميع كان لطيفاً معها. لقد أثنت النساء على ثوبها، وحسدنها على

تسريحتها، وقد أغدق عليها الرجال المجاملات وتقدموا تباعاً للرقص معها. كانت نجمة السهرة. يجب أن تكون سعيدة جداً في الواقع. سعيدة تماماً، لو أمكنها فقط الامتناع عن التفكير بكورال كوف. وعندها، أتى ذلك الصوت من أحلامها وقال بخشونة في أذنها: «هلاّ رقصت معي؟».

جمدت كيت ثم استدارت محدقة فيه.

كان هناك أمامها! وضع يديه على ذراعيها العاريتين، فبدا الامر وكأنها تمشي في حقل مغناطيسي فأجفلت.

ـ تبدين رائعة!

لم يبدُ مسروراً بذلك لسبب ما. وتمكنت أخيراً من الكلام: «ماذا تفعل هنا؟».

ـ أبحث عنك.

ـ ماذا؟

لم يجب، بل قال مجدداً: «أرقصي معي».

بدا مميزاً بثيابه السوداء الرسمية مع قميصه الناصع وربطة عنقه السوداء المعقودة بخبرة. إنه ليس مميزاً فقط بل مسيطراً بطبيعته. لقد بدا في مكانه الطبيعي وسط هؤلاء الناس. ربما كان يعقد ربطات العنق منذ كان في السادسة. لا بد أنه يشعر في هذه اللحظة بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان بثوبها الفضفاض. قالت أول شيء خطر في بالها: «أنا لا أرقص».

ـ بلى، أنت ترقصين. لقد شاهدتك.

ـ آه، مع آلن.

وتبدلت عيناه القاتمتان لنبرتها: «أليس آلن محسوباً».

وتوهجت كيت: «إنها طريقة رهيبة في الكلام».

ولكن نظرة انتصار بانت في عينيه وقال مشيراً برضى: «آلن لا يشكل خطراً! وهكذا يمكنك المجازفة بالبقاء بين ذراعيه بدلاً مني أنا».

لم يكن سؤالاً فتوهجت كيت بشدة فقال بنعومة: «أرقصي معي».

خالفت كل قراراتها وغرائزها ورقصت معه. عندما وصلا الباحة، انتقلت الفرقة إلى عزف موسيقى بطيئة. وضع فيليب ذراعيه حولها وقربها منه قليلاً. أصغيا إلى همس الموسيقي وتحركا على أنغامها كما لو أنهما في حلم. احتضنها برقة وقرّب وجنته من شعرها. وفكرت كيت: «إنه يريدني الآن لأن لديه وقتاً حراً ولأن هذا ملائم له».

أحسّت أن قلبها سينفطر، وهذا جنون! لأن فيليب هاردستي ليس له شأن بها، ولن يكون له أبداً. همس في شعرها: «أتعلمين كم يصعب العثور عليك؟».

ابتلعت كيت ريقها إذ لم تجد جواباً لذلك، ولا حتى واحداً ترغب بالمخاطرة به. أبقاها على مسافة قليلة منه ونظر إليها: «ألم تتساءلي لما لمَ أتصل بك؟».

ردّت كيت كاذبة: «لا».

ـ كنت أعلم القليل عنك. كنت أجهل من أين أبدأ. والخيط الوحيد الذي يمكنني تتبّعه، كان عائلتك التي تجوب العالم.

سألت كيت غير مصدقة: «أكنت على اتصال بليزا؟».

فبعدما تشاجرت أختها مع زوجها بهدف حمايتها! كيف عليها أن تتقبل ذلك؟ وماذا ستقول كيت عندما تتصل ليزا مطالبةً إياها بتفسير؟ ستقول الصراحة بلا شك. وهز رأسه: «إنها لم ترفض فقط إعطائي عنوانك في كورال كوف، بل هي تتنقل سريعاً، ففي كل مرة أحسب أني عثرت عليها، تغيّر عنوانها. إنه وضع محبط».

واستجمعت كيت نفسها: «هي لن تخبرك شيئاً بأي حال. سيكون عليها أن تتصل بي أولاً، وأنا كنت سأقول...».

ـ نعم؟

وأعلنت كيت بحزم: «كنت سأقول لها ألا تخبرك شيئاً».

كانت تحاول إقناع نفسها أيضاً وربما أكثر منه. جذبها مجدداً بين ذراعيه

بضحكة ناعمة: «طبعاً، سنقولين».

وتراجعت بعيداً وهي تنظر إليه بعينيها الضيقتين. كانتا بلون الزمرد تحت الأضواء المتلألئة من ثوبها: «أنت واثق جداً من نفسك. أليس كذلك؟».

هز فيليب رأسه: «لا أبداً ولكنني أدرك الاعجاب عندما أراه».

وتوقف قبل أن يضيف بنعومة: «وأنا اعتقد بأنك كذلك».

جفّ فم كيت فقالت بصوت عالٍ: «توقف، توقف عن التلاعب بي على هذا النحو. لقد قلت لك...».

وضاقت ذراعا فيليب وقال بهدوء: «قلت لي بألا أستعمل أبداً عبارة حب أمامك مجدداً. إذاً كيف يمكنني صياغتها؟».

شعرت كيت بالحرارة تغزوها، وجالت بنظرها واعية تماماً لما أصابها، إلا أن أحداً لم يكن يصغي إلى حديثهما. لم يكن أحد ينظر إليهما حتى، فقالت: «أنت تحرجني».

قال فيليب بإذعان: «جيد».

وقبل أن تدرك ما يفعله، حرّر ذراعه والتقط يدها فجأة دافعاً بها خارج الحلبة. قالت كيت وهي تندفع وراءه: «ماذا تفعل؟».

ـ أجد مكاناً حيث يمكننا الكلام من دون التسبب بإحراجك.

قادها إلى خارج البهو حيث كان المصعد مشرعاً. دفعها فيليب إلى الداخل وضغط على زر الطابق السفلي وقال: «حسناً. لن يرانا أحد إلا إذا حسبتِ كاميرات المراقبة».

وصل المصعد إلى الطابق السفلي، وفتح الباب بصمت. ضغط فيليب زراً لإبقائه مغلقاً على هذا النحو، وقال مسروراً من نفسه: «إنها مهارة أخرى اكتسبتها من والدي. والآن، أين كنت؟».

ردّت كيت لا شعورياً: «تتلاعب بي».

واستجمعت نفسها: «إسمعني الآن. لا يمكنك اختطافي إلى هنا، ولا

www.elromancia.com

يمكنك إبعادي عن أصدقائي».

تجاهل فيليب ذلك وقال بقوة: «هناك شيء بيننا، وأنا لم أحسن ربما التعامل مع الوضع برمته، ولكن هناك شيء ما. أقرّي بذلك على الأقل».

أعقب ذلك صمت قصير، وبدأ قلب كيت يخفق بالضرب عالياً لدرجة أنها خالت أنه قد سمعه. لم تستطع احتمال ذلك. أدارت كتفها كما لو أنها متحرقة للذهاب: «إنه جنون، لا يمكنك الوقوف جدياً هنا والقول إنك تحبني. لا».

ـ أنا لا أقول ذلك.

انزعجت كيت وغضبت أيضاً: «حسناً، إذاً...».

وفتشت عن جهاز التحكم بالمصعد، إذ لا بد من وجود زر تضغط عليه لفتح تلك الأبواب. أمسك فيليب يدها وأدارها لتواجهه. قال: «لا أدري ما يعنيه الحب».

وشعرت كيت برغبة في الانتقام: «آه، عظيم، عظيم! إذاً، عليّ أن أعطيك دروساً في الهيام، على ما أفترض؟».

بدا فيليب مذهولاً ثم شعر بالاستمتاع الشديد: «لم أفكر في ذلك ولكنها حتماً فكرة».

كانت كيت شديدة الغضب لدرجة أنها عجزت عن الكلام فقالت: «إنس الأمر».

ثم صاحت وقد شعرت بالحرارة: «دعني أذهب».

لم يفعل، بل أعلن: «ما أعنيه هو أن ذلك جديد عليّ ولم أشعر هكذا من قبل».

كانت لا تزال تحدّق فيه، فحاول توجيه أنضل ابتسامة لها؛ تلك الابتسامة الدافئة التي تهدىء من روعها، فنجحت في التخفيف من تشنجها، لكنه تذكر الآن طبعاً بأنها قد لا تنجح مع كيت. قالت بصوت

يرتجف من الغضب المكبوت فيها أو على الأقل هذا ما حسبته هي: «لقد جعلتني سخرية في كورال كوف وها أنت تحاول الآن إعادة الكرة. حسناً ولكن ليس معي، لن تفعل أيها السافل!».

انتزعت يدها من قبضته في النهاية وحررت نفسها منه ثم فتحت المصعد وخرجت إلى موقف السيارات.

أمسك بها فيليب في اللحظة التي كانت تفتح الباب المؤدي إلى سلالم الطوارىء. كان قد توقف عن الابتسام وبدا شعره المسرّح والمتأنق مبعثراً حتى أن ربطة عنقه لم تعد في مكانها في النهاية. بدا صوته ملحاً أكثر منه طارئاً، وبدا صادقاً: «كيت، أرجوك أصغي إلي. سأذهب إلى الريف غداً. تعالي معي. كلميني. لا يمكننا فقط...».

استدارت وقد كانت جد غاضبة لتكون منطقية: «لا تقل لي ما يمكن أو لا يمكن فعله».

وانحجبت الرؤية عن عينه اليسرى دون تحذير، فتراجع فيليب مصدوماً، فيما أكملت هجومها: «لقد كلّمتك. أنت الذي لم تكن تتكلم، لو كنت تذكر؟ سير فيليب! رجل السلام! أيها الرأس الكبير الذي يدّعي التواضع».

وتوقفت سائلة إياه بصوت مختلف تماماً: «ماذا هناك؟».

وضع فيليب يده على الحائط لتثبيت نفسه. أجفلت كيت لحركته المفاجئة، ولكنه لم يلاحظ. هز رأسه كما لو أنه يحاول استعادة الرؤية: «أنا...».

وضع يده على جبينه فسألته: «هل تأذيت؟».

ـ كلا، لا شيء.

كان يحاول استجماع نفسه، إلا أنها رأت بأن شيئاً ما هزه بعنف. وضعت يداً على ذراعه اليسرى: «إسمع، لم أقصد».

واستدار لمواجهتها. لم يدر رأسه فحسب، بل أدار جسمه بالكامل.

www.elromancia.com

مدت يدها وأدارت وجهه نحوها بلطف وعندما رأت التعبير الشاحب على وجهه، قالت كيت بنبرة قلقة: «أنت لا ترى!».

***

٧ ـ ألا تغضب أبداً؟

وانفجر فيليب بالضحك: «أتعلمين بأنك أول شخص يقول لي ذلك؟ لقد حصل لي ذلك مراراً منذ أشهر، إلا أن أحداً لم يلاحظ. أعيش محاطاً بأناس كثيرين، ولم ينتبه أحد منهم أنني أعمل أحياناً بعين واحدة».

صمتت كيت لدقيقة ثم قالت: «هل الأمر خطر؟».

هز رأسه بلا مبالاة، فقررّت عندئذ: «حسناً، سنتكلم. نتكلم فقط ولكن ليس في موقف للسيارات. سنصعد إلى فوق لتناول القهوة ويمكنك حينها إخباري بذلك».

وفكّر فيليب بأن ذلك لم يكن ما خطط له، ولكنه أفضل على الأقل من احتمالها بأحد ما متوعدة بعدم رؤيته مجدداً. إلى جانب ذلك، كان يشعر بالارتجاف، فانحجاب الرؤية لم يعاوده أبداً بمثل تلك السرعة من قبل. صفت الرؤية في عينه فيما كانا يعودان إلى الطابق العلوي. وخطرت فكرة لفيليب بعد أن عاد إليه بصره، فربما يكون فقدانه البصر حجّة لحمل كيت على الإصغاء إليه. لم يرق له ذلك، فهذا لم يكن أسلوبه أبداً. كانت فكرة حبك هذه الحادثة مقرفة، إلا أن كيت بدت عنيدة حتى الآن، فعليه إذاً أن يتمسك بما لديه. عاهد نفسه بعدم إخبارها أي أكاذيب ولكنه ربما سيبالغ قليلاً في الشرح.

فكر فيليب بسخرية القدر التي قادته إلى هذا الوضع، فهو لطالما كان

www.elromancia.com

يتحكم بكل شيء حسبما يذكر. لقد أرغمته فتاته الآن على العودة إلى حالة التردد مجدداً. ستكون تجربة مثيرة للاهتمام ومفيدة. تجنبا قاعة الاحتفال ودخلا مقهى الفندق المؤثث بخشب الماهوغاني اللامع، والتي تسمع فيه الموسيقى الهادئة. كان الناس يروحون ويجيئون. لم يتعرّف عليهما أحد ولم ينتبه أحد لوجودهما. وما إن أحضر النادل القهوة لهما، أمرته كيت: «أخبرني».

تردد فيليب لدقيقة، ثم هز برأسه وأخبرها باقتضاب مهني وجهة نظر الإخصائي، وختم قائلاً باستسلام: «ليس أمراً مهماً ولكن لا يمكن عمل شيء».

لم يطلعها على نصيحة طبيب العيون بالعيش يوماً بيوم. نظرت إليه بضيق: «أصحيح؟».

وأخفى فيليب ابتسامة: «لم يسألني أحد أبداً ذلك في حياتي».

ردت كيت بمرارة: «ولم؟ هل اقنعتهم جميعاً؟».

قال: «أعتقد ذلك».

أسند ظهره إلى الأريكة الجلدية مراقباً تبدل تعابير وجهها، فهو لم يرها متبرجة من قبل، وبدت فجأة أكبر سناً وأكثر حزماً. أو ربما تغيّر طبعها منذ غادرت كورال كوف. لا بد أنها عاشت رعباً حقيقياً عندما ظهر رفيق في الليل متحدياً إياه.

وحللت كيت كلامه: «إذاً، فأنت لن تعمل بنصيحة أحد».

قال بلطف: «لم يقدم لي أحد أي نصيحة».

وصاحت كيت: «وهل سألت أحداً؟».

سحر بالطريقة التي يتغير بها لون عينيها من الأخضر إلى الزمردي والأزرق الرمادي. انحنى إلى الأمام قائلاً: «لا أظنك تفهمين ما هي عليه حياتي. أعمل وأسافر في معظم الوقت. أرى أصدقائي مرتين في السنة إذا ما حالفني الحظ. أعيش وحدي. من أستشير؟ معاوني؟ البواب في بنايتي؟».

دهشت لكيت للصورة القاتمة التي يرسمها، فرق قلبها ثم تذكرت ذلك المقال عن سورالياخان. كان فيليب هاردستي يبذل قصارى جهده لاستمالة عطفها، لذا ردت بجفاف: «آه، متأكدة من أنك نسيت أحداً. يجب أن يكون هناك صديقة مجهولة في مكان ما».

قال فيليب: «آه، الصديقات!».

تغيّرت نغمة صوته وكأنه يقول: آه تلك الحلوى!.

واستنتجت كيت بأنهن جميلات، ولكنهن لسن بذات أهمية. ونهضت فالتمع ثوبها كأعماق المياه، ونهض فيليب بدوره بلباقة. كم هو طويل! كم هو وسيم في سترته وبشعره الحالك وتقاسيمه المنحوتة وتلك الهالة الجبارة المتماسكة. تجنبت عينيه واقترحت بحدة: «عاملهنّ باحترام ثم اطلب نصيحتهن».

وغادرت من دون أن تلقي نظرة إلى الوراء.

وتعقبها فيليب بقلق. لم يكن يُفترض حصول ذلك. لقد لعب دور النبيل المتألم جيداً حسب اعتقاده وقد رفضت الإذعان لذلك فجعلته يشعر بالألم وبالحماقة. ماذا عنت بقولها عن معاملة صديقاته باحترام؟ إنه يعامل النساء دوماً باحترام وكان ذلك مدعاة فخر بالنسبة له. أوقف فيليب أفكاره فاعتراه الذهول. لم يسبق له أن اغتاظ يوماً من امرأة هجرته. لكن تلك الفتاة خطيرة وكانت تعلم أين توجه أسلحتها. بدا ذلك مثيراً، بل أكثر من ذلك، بدا الوضع فريداً. سبق له طبعاً أن اختبر ذلك من قبل، ولكنه كان وجهاً جديداً لكيت روماني يحتاج إلى عناية دقيقة وإلى تعامل حذر أيضاً، وعاد إلى الحفلة مفكراً.

قامت كيت بتوديع آلن وبإعطاء تاتيانا تقريراً مفصلاً عن أمسيتها وباتت الآن وحيدة في شقتها. لم تضيء النور بل وقفت أمام مرآتها الضخمة، تنظر في طيفها المنعكس الشاحب وبالكاد تعرفت على نفسها. حبس الضوء كل الألوان من فستانها وشعرها، فبدت محاطة بالقماش

www.elromancia.com

المتهدل الشاحب وكأنها حورية بحر كما أسماها فيليب ذات مرة. صدمت لاكتشافها في العتمة أن فمها ممتلىء بالإغراء. لم لم تلاحظ أبداً ذلك من قبل؟ كما أن عينيها تلمعان ببريق رائع. كانت تبدو حية. لقد وجدها أخيراً. انتظرته أن يفعل.. تاقت لذلك وخشيت من عدم حصوله.. اشتاقت وقد أحست بالخزي من توقها إليه. الآن وبعد أن تم كل شيء وحضر إلى هنا، أرسلته بعيداً فيما كان مجرد ذكره يجعل عينيها تلمعان كالماس وشفتيها تنفرجان تحرّقاً. تأوهت كيت قائلة: «يبدو أنني فقدت صوابي».

عليها أن تجده، وأدركت أنها لا يمكن أن تدع الأمور على هذا الشكل مهما كلّفها ذلك. كان مصيباً، فثمة شيء بينهما وانبأتها صورتها بثوبها الأزرق بصدق إحساسه مع كل نبضة تخفق فيها. لاح لها سؤال، كان ينبغي طرحه في تلك الليلة تحت النجوم. ولكنها قدمت له قلبها على طبق. لقد أدركت ذلك الآن ولم يعد بوسعها فعل شيء لاسترجاع ذلك. عليها أن تذهب إلى نهاية المطاف أو تبقى في دوامة لبقية حياتها. قالت تحدث صورتها في المرآة: «حسناً، لقد ربحت. ليساعدني الله».

ذهب فيليب إلى العمل كعادته، ولو سُئِل ضيوفه في اليوم التالي عنه، لأجابوا باقتناع تام أنه لم يسأل عن كيت روماني وأنه لم يظهر حتى أي اهتمام بها. لكنه كان يقوم بتنظيم الجداول، مستحضراً الأحاديث عن الفتاة في الفستان الأزرق. ستدهش كيت لو علمت مقدار الناس الذين يعرفونها.. كان فيليب يحفظ كل تعليق في ذاكرته لأنها تستحق أن تحفر في الذاكرة على الدوام، فقد كانت مذهلة ليلة أمس وكأنها أميرة مشرقة. توصل في النهاية إلى صورة عامة عن حياتها، أصدقائها وعاداتها ولكنه لم يحصل على شيء واحد: عنوانها. اتصل بوكيل الأرض في آشبرو وأطلعه أنه سيؤجل زيارته إلى أجل غير مسمّى. وقال جوفري باس بحذر: «ولكن ثمة قرارات هامة علينا مناقشتها».

فقال فيليب بتهذيب ولكن بإصرار: «سيكون عليها أن تنتظر إذ يجب

علي البقاء في لندن للقيام بأمر هام».

وكان جوفري ينظر إلى مهام فيليب بتقدير كبير. قبل عذره فوراً مستفسراً: «محادثات مهمة؟».

قال فيليب بتأثّر: «مصيرية».

وما إن أقفل السماعة، حتى توجه مباشرة لتنفيذ مهمة العثور على كيت روماني.

* * *

شعرت كيت بالتردد يتنامى داخلها فيما كانت قابعة في القطار، فالركّاب كانوا من السواح الودودين صباح ذلك الأحد. كان الأهل يصطحبون أبناءهم إلى المتاحف، فيما يذهب البعض للتسوق، أمّا العشاق فكانوا في طريقهم لزيارة عائلاتهم. كان كل شيء طبيعياً، وأحست بأنها المسافرة الوحيدة التي ترتجف برداً، وعزت ذلك ربما إلى أنها ترتجف من الداخل. أحست بالجبن عندما وطئت عتبة فندق فيليب. صحيح أنها اعتقدت بأن قاعة الحفلة في الأمس رائعة، غير أنها لم تكن شيئاً بالمقارنة مع هذا المكان. لقد بدا المدخل كمنزل خاص رغم حجمه، وقد اختبأ معظمه بالأشجار، وفور دخولها، وجدت نفسها محاطة بالجلد والقماش المطبوع، أما الحيطان فمكسوة بالرسوم واللوحات ذات الطراز الفيكتوري. صعب عليها تحديد مكتب الاستعلامات من بين كل تلك الطاولات المطلية.

تردّدت كيت في الردهة فبنطلونها القطني وسترتها الناعمة كانا يبدوان مناسبين لدى مغادرتها المنزل، لكنهما لا يبدوان كذلك الآن بخياطتهما المتواضعة ونوعيتهما العادية. أحست بأنها دخيلة على هذا المكان الفخم، وازداد ارتعاشها. أشفق عليها أحد خدم الفندق وقال: «هل أستطيع مساعدتك؟».

ابتلعت كيت ريقها وأجابت بصوت عال حاد: «أريد رؤية فيليب هاردستي».

www.elromancia.com

لقد عثر لها آلن على الفندق الذي ينزل فيه فيليب وبغض النظر عن توقعاتها، لم ينظر إليها موظف الاستقبال بشك وقال: «السير فيليب؟».

سير! طبعاً! لقد نسيت ذلك. لا عجب في إحساسها بالضعة. قال الموظف بسرّية: «دعيني أتحقق فقط مما إذا كان ينزل عندنا. إسمك آنستي؟».

وأخبرته باسمها. وافترضت أنه ذهب لسؤال ضيف الشرف ما إذا كان يود الإعلان عن حضوره لأناس يسألون عنه في البهو. تقدمت كيت نحو المدفأة، ومدت يديها نحو النار، ولكنها لم تشعر بالدفء، ثم سمعت صوتاً يقول وراءها بتعجّب: «كيت؟!».

وفجأة، شعرت بالحرارة الخانقة. تناول فيليب يدها فلم تمانع. جال بنظره في البهو الحميم وقال بصوت متعب: «لا يمكننا التحدث هنا ولن أسألك الصعود إلى غرفتي. أتودين القيام بنزهة؟».

فقالت كيت: «جيد».

أحست بالخدر، ولكنها ارتاحت لزوال الاحمرار من وجهها على الأقل. سارا معاً عبر الشوارع المكتظة بالبنايات الضخمة. اجتازا قصراً أو اثنين وعبرا البوابة نحو حديقة سان جايمس حيث أخذت كيت نفساً مستقراً.

كانت أوراق الأشجار تتحول إلى خضراء زاهية وقد سكبت عليها الشمس لوناً عسلياً.

قالت دون إرادة منها: «هذا المكان جميل جداً».

وافق فيليب: «لطالما أحببته، والآن أخبريني».

لم تدّع كيت عدم فهمه، فقالت بصعوبة: «أتمنى لو أنني لم أقل أمس تلك الأشياء».

ـ آه.

وتابعت بسرعة: «ليس لأنها خطأ بل أنا متمسكة بكل كلمة فيها، ولكن ثمة أمور أخرى لقولها وكنت محقاً في ذلك. كان علي البقاء والتحدث

معك».

وأومأ فيليب فقالت كيت متأوهة: «قل شيئاً».

ـ كنت أفكر.

ـ آه، تباً!.

وأذهله ذلك: «ماذا؟».

قفزت كيت حانقة: «لم لا تقول فقط ما تعنيه؟ لا يمكنني تحمل كل تلك الحسابات والتصرفات الدبلوماسية الغريبة. إنها ليست طبيعية».

وفوجيء فيليب، فقال محاولاً إضفاء المرح على كلامها غير أنه كان يرتعش لشدة انفعالها: «أتعنين أن نعيش اليوم بيومه؟».

ـ يمكنك أن تقوم بالأسوأ.

وأخذ نفساً عميقاً: «جيد. تكلمي مع إحدى صديقاتي لتري ما إذا كنت أعاملها باحترام وأستمع إلى نصحها».

ثم قال كما لو أنه يردد درساً على مسمعها: «تعالي معي إلى منزلي».

ـ ماذا؟

ونظر إلى البعيد ضاحكاً: «لا تحبين ذلك. لا؟ هذا ما أقوله وأعنيه من دون ديبلوماسية».

استدارت كيت لمواجهته وقد بدت عيناها خضراوين بلون الربيع.

ـ أتريدني أن أرحل معك؟ لمَ؟

وبسط يديه: «لنتحدث، لنكون معاً. علي الرحيل بأي حال، فهناك الكثير من العمل وقد أهملته لأشهر. ستكون الفرصة المثالية لأظهر لك هويتي. لنرى...».

وقطع كلامه وضرب يداً على راحة يده الأخرى. كانت حركة غير طبيعية، غير منضبطة وتقريباً عنيفة. راقبتها كيت دون تعليق.

ـ آه، هذا غباء، لم تريدين المجيء معي؟ حتى ولو كنت الرجل المناسب لك، ليس لدينا أنا وأنت أي قاسم مشترك. فأنا عجوز مضجر لا يستطيع

www.elromancia.com

الرؤية بانتظام.

ألمح بذلك إلى عينه، ولكنها قالت بسرعة: «وهل ستقود إلى المنزل؟».

فانزعج: «ماذا؟».

لزمه وقت لفهم السؤال العملي الذي طرحته، فقال: «آه، أجل، لقد استأجرت سيارة اليوم».

ردت ببرود: «وهل تعتبر القيادة بعين واحدة آمنة؟».

لم يفكر بذلك. لم يكن يفكر بأي شيء سواها في الأيام الأخيرة على ما يبدو، فقال وقد أدرك مغزى سؤالها: «آه، تباً».

فقالت بصراحة: «تحتاج إلى سائق معاون».

وحدق بها فيليب. فابتسمت كيت وأدركت أنها توقفت عن الارتعاش أخيراً، وأخبرته بوضوح: «لن آتي معك كعشيقة تحت الطلب».

ـ كيت!

ـ غير أنني سآتي كسائق معاون ومساعدة مؤقتة، ولكنك ستجري اتصالاً مهنياً بمديري، وستبعد يديك عني وعندئذ ستتحدث.

نظر فيليب إليها مطولاً والتمعت عيناه بشعاع غريب: «أنت تفاوضين في معركة متشابكة».

رفعت كيت ذقنها: «يمكنك القبول أو الرفض».

رد فيليب بسرعة: «سأقبل. صدقيني سآخذ ما يتوفر لي».

* * *

أجبرته على الالتزام باتفاقهما. أنهت «هيلين لودفيغ» المسؤولة عنها العقد وألقته على الطاولة فوقعه فيليب دون قراءته. نظر إلى كيت وعيناه مليئتان بالتسلية المحببة: «راضية؟».

كانت فرحة جداً في أعماقها، فهي لم تعد تلك الفتاة الشديدة الحساسية كما فكّرت. لقد فرضت نفسها ككيت روماني وأثبتت أنها تستطيع النجاح والحصول على الأفضل وعرض عليها فيليب تسلّم دفّة القيادة، غير أن كيت

اعتذرت بلباقة ولم تقل له إنها حازت على الإجازة منذ أقل من أسبوع. كانت تدرك بأنها سائقة ماهرة، ولكنها تفتقر إلى الخبرة، خصوصاً عندما تقود برفقة راكب سكن أحلامها لأشهر عدة. لم تكن ترغب بأن تلحق أول ضرر بسيارة ليموزين مستأجرة أيضاً. لذا ردت بحزم: «أنا مساعدة، فإذا خانتك عيناك، سأتولى القيادة، وإلاّ ستتحمل أنت المسؤولية».

همس بين شفتيه المضمومتين: «قرار صائب».

كانت الرحلة طويلة، ليس فقط بعدد الأميال التي قطعاها للوصول إلى مسكنه، فسألت كيت: «كيف دخلت إلى مهنة المفاوضات السلمية؟».

ـ بالصدفة، إذ كانت الخدمة الدولية التزاماً فوالدي كان عسكرياً وكذلك كل افراد العائلة. أراد أبي أن انضم إليه في الحربية ولكن أمي كرهت الفكرة، فعندما يرحل، كانت تصاب بالجنون متوقعة سماع خبر مقتله. وعندما يعود، كانت تترقب طوال الوقت استدعاءه مجدداً.

ردّت كيت بجفاف: «يبدو زواجاً ناجحاً».

ووافق فيليب: «له حسناته».

ـ وهل ما زالا معاً؟

فقال: «توفيا في حادث منذ نحو خمس سنوات، وهكذا تسلمت آشبرو. إذ لم أكن أتوقع أن أرث باكراً جداً وليس لدي الوقت للاهتمام بها».

وبدا بارداً فترددت كيت قبل أن تقول بحذر: «ألا تشتاق لهما؟».

بدا فيليب متفاجئاً: «يجب أن تفهمي بأنني لم أرهما كثيراً، كنت في المدرسة وكانا خارجاً. تعرفت على جديّ أكثر. وكان جدي يقول لي بألا أتوقع أن يكرّس لي والداي وقتهما، فلديهما مسؤوليات رفيعة. لقد كان ماهراً في مهنته».

وابتسم باستسلام من دون أن تبدو عليه المرارة، كما فكرت كيت بذهول، وقالت: «يبدو ذلك تعيساً».

www.elromancia.com

وبدا متفاجئاً: «صحيح؟ ولكنني حظيت بمزايا كثيرة فعندما تُمنحين الكثير يجب أن تعطي في المقابل».

اكتشفت كيت بأن حنجرتها قد ضاقت لسبب ما، وقالت غير موافقة: «ليس دائماً».

ودّت لو تحيطه بذراعيها وتضع رأسه على صدرها. بدا غير واع لمشاعرها وقال بفظاظة: «لا فأنا الوحيد الذي أغرق نفسه بالعمل. وهذا جنون لكنني أريد أن أكون الأفضل».

قالت كيت: «أجل».

إذ كانت تعي ذلك تماماً. ونظر إلى وجهها: «إذاً وداعاً للحياة الخاصة، فهذه العبارة مرفوضة».

كادت تسأله عن سوراليا خان ولكنه كان يتكلم عن عمله ولقد مرت اللحظة الملائمة. فتابع قائلاً:

ـ تساعدني خبرتي المهنية طبعاً في هذا المجال

لم تفهم عليه، فشرح لها قائلاً:

ـ مهنتي ساعدتني في تبريد المشاعر. هذا ما أقوم به في حياتي فلا أتجاوب أبداً مع الغضب ولا أنفعل. أحافظ على أعصاب باردة عندما يتعلّق الأمر بالعلاقات الشخصية.

لم تستطع كيت التصديق: «أنت لا تغضب أبداً؟».

رد بلا مبالاة: «لا استطيع ذلك. إلى جانب ذلك، قد يسرّع الغضب ردة فعل أحدهم إذا كان يريد النيل مني».

وأدركت كيت برعب عمّا يتكلم: «ينال منك؟ هل أنت مطلوب إذاً؟».

قال فيليب باعتدال: «لنقل إني أداة تفاوض».

كان يخرج بالسيارة من زقاق متعرج في مكان ضيق، لذا تمكن في قول جميع الأشياء التي لم يكن يجرؤ على البوح بها حتى لنفسه، ولكنها ستتبخر

كما لو أنه لم يتفوه بها فور نزولهما من السيارة. وشعرت كيت بقلبها يتلوى ألماً وغضباً: «كيف يمكنك أن تكون هادئاً حيال ذلك؟».

ـ لا أظن فعلاً بأن هناك الكثير للقلق عليه. ولكنني أحب أن أكون جاهزاً وعندما لا أكون، يحصل دائماً شيء مزعج.

فقالت كيت وهي تتبين ثباته: «فهمت».

خابت آمال كيت لمدى التفاوت بينهما، وتابع فيليب: «في تلك الليلة مثلاً، عندما ذهبنا لرؤية الشلال، كان علي بصراحة التشاور مع حارسي قبل أن أرافقك إلى هناك».

ظلّت كيت صامتة لفترة ثم قالت ببطء: «أنت تلوم نفسك لما حصل. أليس كذلك؟ ذاك الجنرال الذي كان يتعقبنا؟ تظن بأنه ما كان يجب أن يحصل».

قال فيليب بدقة: «لم يكن يجدر بي تعريض أحدهم للخطر».

اعتصر الألم قلب كيت لأنه استعاض عنها بكلمة «أحدهم».

قالت ببطء: «هل يجب أن تتناقش مع رجل الأمن في كل مرة تقوم بشيء بمفردك؟».

ـ عندما نقوم بمهمة، يفترض بنا ذلك.

ـ وعندما لا تكون؟

ـ تتبعين حدسك تحسباً لأي طارىء.

رفعت وجهها: «يبدو ذلك ألماً حقيقياً».

فقال فيليب بحذر: «إنه يحدّ من إمكانية الارتباط بأي شخص في حياتك حتماً».

قالت بيأس: «هل هذه رسالة توجهها إليّ؟».

وزمّ شفتيه، ولكنه لم يجب. فأكملت: «والنتيجة هي: لا تتورطي معي لأنه لا يمكنني الالتزام أليس كذلك؟».

قال باعتدال: «لا أريد أن يحصل أي سوء تفاهم».

www.elromancia.com

فقالت كيت وكانت تغلي من الغضب: «جيد جداً، حسناً! ولا أنوي ذلك. فأنا هنا كمعاونة لا أكثر ولا أقل».

فقال بجفاء: «طبعاً».

استدارت في مقعدها لتنظر إلى تقاسيمه الجليدية، وقالت بثبات: «وإذا أردت المزيد، أقول لك من الآن إنه سيكون عليك بذل مجهود جبار لإقناعي».

تحوّلت تقاسيمه الجليدية إلى تعبير إعجاب وتقدير وقال فيليب: «اتفقنا».

***

٨ ـ روعة الغروب

كان المنزل من بعيد أشبه بقصر ملوكي وقد بني في منتصف البحيرة. كان يلمع تحت شمس الربيع، كما لو أن هناك ضوءاً في داخله.

أما البحيرة فكانت متماوجة برقة. ضفافها مزروعة بأشجار الصفصاف، أغصانها الخضراء والصفراء تلوح كشعر أشقر عندما يهب النسيم، وكان البط يعوم في المياه. وأما أزهار السوسن فكانت تلوح بين النباتات على حافة الطريق، أما المساحة الخضراء المنبسطة خارج بوابة القصر فكانت مزروعة بالياسمين الذي يتلألأ كالجواهر. بدا المشهد كاملاً فتأملته كيت مسحورة، وقالت وهي تأخذ نفساً طويلاً: «كيف يمكنك الرحيل عن هذا المكان؟».

نظر فيليب نحوها مذهولاً، فبدت عيناها الخضراوان بلون الأوراق الندية دامعتين. قال بنعومة: «إنه مجرد قرميد وبناء».

وبدت مصعوقة: «ولكنه منزلك».

لم يستطع المقاومة فوضع ذراعه حولها. كانت كيت ترتعش: «لقد تخليت عن الكثير. أليس كذلك؟ فأنت لم تنشغل فقط بالأسفار وتتخلى عن الرفقة ولكنك نفيت من الجنة».

وتطايرت خصلات شعرها الذهبية الناعمة على شفتيه. تنفس فيليب وسط هذا الشلال الأشقر اللطيف وتلمس دفء تلك الفتاة الناعم. وقال

www.elromancia.com

وهو يرتجف بدوره: «ربما».

لم يتكلما فيما كان يسير بالسيارة ببطء باتجاه المنزل. قفزت كيت من السيارة فور وصولهما، إذ كانت لا تزال تشعر برغبتها في البكاء. عليها توخي الحذر، وإلا فإن هذا الجو سينال منها. لذا فهي لم تنتظر منه أن يفتح لها الباب بل نهضت بعيداً عن ذراعيه القويتين. وقالت بثبات: «حسناً، ماذا تريدني أن أفعل؟».

وبدا مستمتعاً، فقال بلطف: «أن تمكثي هنا».

صرخت كيت: «أنا هنا للعمل. لا تنسَ ذلك أبداً. هل أحضر الطعام؟».

بدا عليه الاستمتاع الشديد: «أعتقد أن مدبرة المنزل قد فعلت ذلك لتوها».

طبعاً، لا بد من وجود مدبرة للمنزل، وسيكون الوضع مشابهاً لما حصل لها في فرنسا حيث راحت تتجول هناك في قصر صهرها، ترتكب الخطأ تلو الخطأ، وهذا سيتكرر هنا من جديد. قالت بنبرة واقعية: «أحذرك، أنا لست بضخامة هذا المنزل».

كان فيليب يتمعن في عدد من الرسائل على طاولة الردهة ولكنه نظر إليها: «ماذا تعنين بحق الله؟».

نظرت كيت إلى الطاولة فرأت أنها مصنوعة من خشب السنديان، وتتسع لثلاثين شخصاً، كما فكرت. كانت شديدة اللمعان بحيث يمكن للمرء رؤية صورته فيها. لم يعط فيليب أهمية لذلك كما لو أنه يقف قرب صندوق للمحاسبة في سوبر ماركت. قالت وهي تشير بيدها نحو رزمة الرسائل: «أنظر إلى نفسك. أنت تحول قطعة أثرية مكباً للنفايات».

وضحك لكلامها: «سيتم ترتيب كل شيء في الوقت المحدد».

فقالت بحزن: «لا تقل لي بأنه شأن المدبرة. ماذا سأفعل هنا؟».

فعلق بدوره: «تعطينني النصائح».

وأضاف بدهاء: «وتحملينني على العمل بجد لإقناعك بحبي».

وتوهجت كيت بتردّد مفاجىء. كان يضحك، إلا أن عينيه كانتا في غاية الجدية. وأحست بالدفء يسري في عروقها. وعندها، انفرج باب ضخم من الجزء الآخر في المنزل، ووصلت مدبرة المنزل، فصُدمت كيت لمرآها. فهي في سن كيت، ترتدي بنطلون جينز وكنزة برتقالية. وجهت الكلام إلى فيليب دون تكلّف، فقالت بنبرة عادية: «آه، أهلاً فيليب. خلتني سمعت سيارتك».

ـ مرحباً ساندي. هذه هي كيت.

نزعت المدبرة قفازها الأصفر المطاطي، وصافحتها بحماسة: «سررت للقائك. أتمنى فعلاً أن تكوني مرتاحة، لقد أعددت لك غرفة الملكة، كما قلت، فيل. غير أن ذاك السرير القديم لا يحوي رفاصات».

وتوجهت إلى كيت بصراحة: «إنه جميل ولكنك قد تجدين صعوبة في النوم».

كان يمكن لكيت أن ترد بإجابات مختلفة، ولكنها آثرت الصمت وتجنبت النظر إلى عيني فيليب، فيما كان يقول بـاقتضاب: «سنرى. بأية حال، أستطيع التعامل مع ذلك في حال حدوثه».

وأمسك يد كيت: «دعيني أريك غرفتك».

رافقته محاولة أن تبدو كمن يمسك على الدوام بيد أرستقراطي طويل ووسيم. وتمنت لو يزول توهج أذنيها. عندما وصلا إلى غرفة الملكة، نسيت ارتباكها وتملكها العجب. سرير ضخم يتوسط الغرفة. كان مزوّداً بستائر خضراء مخملية كلون الربيع أما الغطاء فذهبي بلون الشمس.

فقال فيليب وقد حدس وجهة نظرها: «إنه مفرش ذهبي، يبدو رائعاً ولكن ملمسه خشن».

وضعت كيت يدها عليه برقة وكأنه سراب قد يختفي. فيما قال فيليب بخفة: «تعلمين؟... منذ اليوم الأول الذي رأيتك فيه. ظننتك مناسبة

لهذه الغرفة».

ونظرت إليه بذهول فقال بنعومة: «ولكن الآن، أرى أنني مخطىء».

صدمت كيت لتصريحه واستدارت بعيداً، ثم أضافت بصوت هش: «طبعاً. أخبرتك بأنني لا أضاهي رقيّ هذا المكان».

فتابع كلامه وكأنه لم يسمعها: «وددت رؤيتك ممدّدة على ذلك المفرش. ولكن ذلك صعب طبعاً. عليك أن تحتفظي بثيابك عليك أو ستخدشين».

فقالت كيت بصوت مغاير: «آه».

وتابع فيليب بصوت أجش فجأة: «وإذا أقنعتك بحبي فلن تبقي...».

وصمت فجأة فاسحاً المجال أمام مخيّلتها الخصبة لتكمل جملته. فشعرت كيت بعينيها تتسعان أكثر فأكثر، وأحست بأن جسمها كله يتوهج احمراراً وليس فقط أذنيها. وغاص قلبها إلا أنّ عقلها حذرّها من الانجراف، لأنه درب غير آمن. فلقد جعلت من نفسها أضحوكة في المرة الماضية ومن المنصف أن تخبره بأنه يتلاعب بها.

مازحها وعيناه شاخصتان عليها: «قولي شيئاً حتى ولو كان ذلك: «إحلم».

أجفلت كيت وبدا صوتها غريباً: «لم أكن أنوي قول ذلك. ولكن..».

ورفع فيليب حاجبه بخبث: «لم أبذل جهداً كافياً بعد؟».

فقالت كيت وقد التقطت أنفاسها: «كلا، أنت لم تفعل ولكنني ما كنت لأقول ذلك حتى».

ـ تملكين انطباعاً مسبقاً عن المدبّرات. لا تقلقي فساندي تعود إلى بيتها عند الخامسة.

ردت كيت بوحشية: «توقف. لقد قلت لك سابقاً أن تدعني أكمل جملي بنفسي».

ولوّح بيديه في إشارة استسلام.

استجمعت شجاعتها محاولة أن تركز أفكارها. وقالت في نهاية الأمر: «إسمع. أنت لا تعرفني أكثر مما تدعي. هناك أمر علي إخبارك به».

أشرقت الابتسامة في عيني فيليب: «أنت متزوجة ولديك أربعة أولاد؟».

بدا صعباً عليها مقاومة مشاركته الضحك: «لا، بالطبع لا».

فقال بمرح: «أستطيع التعامل مع أي شيء آخر».

وابتسمت كيت: «ربما يمكنك ذلك. ولكن دعني على الأقل أخبرك أولاً».

فأمسك بيدها: «أخبريني أي شيء تودينه. دعيني آخذك في جولة في قصري، ويمكنك إطلاعي على الحقيقة الرهيبة».

بدا الأمر في غاية الصعوبة، إذ لم تكن كيت قد تكلمت عن ذلك لمدة طويلة. وفكرت بأنها نسيت كيفية إطلاعه على الحقيقة. لذا عجزت عن إيجاد الكلمات المناسبة. وفي نهاية المطاف، توقفت أمام لوحة تمثل أشخاصاً متوسطي القامة يتحلقون في غابة. وتأملتها من دون أن تراها. فقال فيليب مسروراً: «إنها لأوتريللو. هل أعجبتك؟».

أومأت برأسها ثم قالت: «تظنني قوية».

ـ ومثيرة جداً، لا تنسي ذلك.

لم تقدر على النظر إليه أكثر بعد ذلك: «أشكرك. ولكن هناك مسألة أخرى يجدر بك أن تعرفها».

فردّ بلطف: «هل تقصدين علاقتك بذلك الرجل الذي لم يكن يحبك؟».

وقفزت كيت. لقد نسيت أنها أطلعته على ذلك. وقال بلا مبالاة: «أنت راشدة ولك الحق بأن تتمتعي بالحياة».

ابتسمت وهزت برأسها: «لا أعني ذلك. وإنما هناك مسألة تتعلق بعدم قدرتي على مواجهة الخيبة والفشل. أعني تلك الفوضى التي أثرتها. أنا...

آه، تباً لذلك».

واستدارت نحوه كما لو أنه عدو لها ونطقت: «كنت مصابة بفقدان الشهية المرضي خلال المراهقة ولكنني شفيت بفضل مساعدة ليزا. وعندما رفضني جوني، حسناً، حصل أمر آخر. لقد أُصبت بانهيار وعاودتني الحالة مجدداً فكرهت نفسي والمرآة، ولم أرد أن ينظر إلي أحد».

ـ آه، كيت... حبي!

لم يعد فيليب يفكر بالضحك حتى، بل أراد أن يحيطها بذراعيه، ولكنه لم يكن يجرؤ. نظرت بعيداً وتابعت قائلة: «ساعدتني ليزا على اجتياز ذلك أيضاً. عينت لي إخصائياً قال لي بأن أنظر إلى ما أرغب به لا إلى ما يود الآخرون أن أنظر إليه».

ـ لقد تخطيت ذلك، إذاً؟

وأخذت كيت نفساً مرتجفاً: «من يعلم؟ هناك الكثير من الحالات وهناك الكثير من الأدوية. آخر طبيب زرته قال لي إن تلك الفكرة قد زرعت مسبقاً في رأسي. ولكنني لا أعلم ما إذا كان مصيباً، أو كيف ترسخت الفكرة في رأسي. لقد خضعت للتنويم المغناطيسي ولم استطيع إيجاد مبرر لذا فهو ربما مخطىء».

نظر فيليب نحوها بجدية: «وتخافين أن أتركك كما تركك جوني، فتعاودك تلك الأعراض من جديد؟».

هزت كيت رأسها بتصميم: «لا، ليس ذلك. أعرف تلك العوارض وأستطيع تخطيها الآن».

فقال فيليب: «ماذا إذاً؟ لأنك تخشين شيئاً، أليس كذلك؟».

قالت: «الناس يحرجونك ولا يلاحظون ما يحل بك، فلا تستطيع تخطي ذلك».

لم يعد بوسعه الاحتمال. أحاطها بذراعه وقرّبها منه: «هل تقولين لي إنك لم تتخطي جوني؟».

هزت رأسها مجدداً بعنف فقال: «وماذا إذاً؟ ما الذي لم تتخطيه، حبّي؟».

نسيت أنها طلبت منه عدم تسميتها حبي مجدداً. فقالت بحزن: «لقد أصابتني عوارض نفسية خطيرة، ما زالت آثارها تؤلمني حتى اليوم».

وعمّ صمت مطبق ثم قال فيليب بصوته الرقيق والمتماسك: «علينا أن نتكلم عن ذلك. تعالي معي».

ذهبا إلى غرفة جلوس يتوسطها إناء نحاسي عليه براعم وردية، وقد شرعت النوافذ أمام شمس الربيع. جلس فيليب على كرسي جلدي، وقرب لها كرسياً لتجلس عليه. أمسك بيديها وقال: «أخبريني».

وابتلعت ريقها: «كنت مغرمة به وهو لم يكن يحفل بذلك، ولكنه رأى من المناسب أن يخرج برفقة إحدى الفتيات إلى الحفلات في الجامعة على ما أفترض. من المؤكد أنه لم يكن يهتم لأمري، ولكنني أتحمل كامل المسؤولية لأنني سعيت وراءه».

وقالت بوضوح واهتمام: «لا أريدك أن تعتقد بأنني ضحية».

دفع فيليب خصلة من شعرها وراء أذنها وكأنه لم يستطع منع نفسه عن ذلك.

ـ لدينا قاسم مشترك، فأنا أريد دوماً أن أكون منصفاً أيضاً.

وابتسمت له ابتسامة حلوة ومفاجئة: «يمكنك أن تكون بطلي».

لم تلاحظ مدى تأثير كلامها عليه ولكن فيليب أحس به بوضوح، فحبس يديها. قالت بصعوبة: «كنت أريده لي وحدي، ثم اكتشفت أنه يخرج برفقة أخريات، وعندما واجهته غضب مني وثار جنونه».

وعادت بذاكرتها إلى وجهه الأبيض والثائر، فارتجفت قليلاً، وضاقت قبضة فيليب وقال بنبرة أكثر هدوءاً مع أنه يود لو يقتل من يجعلها ترتجف: «ربما كان خائفاً أكثر منه غاضباً، فبعض الرجال يرتعبون من فكرة الحب الحقيقي، لأنهم يخشون أن يقودهم إلى الارتباط والزواج».

وأومأت: «ربما. ولكنني أدركت فقط حينها أنه لا يهتم بي مطلقاً. لقد هزني بعنف، كنت بالنسبة إليه مجرد فتاة يلهو معها».

واشتدت يدا فيليب عليها. وبدا لها خطيراً بصورة مفاجئة. لن يتعرف مئات المتحاربين في العالم على ذلك المفاوض الصلب والحاد. أدرك ذلك لمجرد النظر إلى نفسه في المرآة، فلم يتعرف هو أيضاً على نفسه. أرخت كيت أصابعها المتشابكة، ونظر إليها فيليب فهزت رأسها: «لم أشأ أن يلمسني أحد لفترة طويلة، لكني تخطيت ذلك بعد عودتي من كورال كوف».

بدا الأمر وكأنه منح كل شيء دفعة واحدة. إلا أن كيت لم تكن تدرك ما قالته للتو. كانت جالسة هناك، عابسة خلال محاولتها إطلاعه على أسرارها. وعندئذ، أفشت له بالشيء الوحيد الذي يهمه في العالم. عاهد فيليب نفسه بأنه سيجعل منها أسعد امرأة في العالم. إلا أنها تابعت الكلام: «لقد هربت في ليلة عاصفة بعد أن تشاجرنا ومشيت حتى تبللت ولكنني أكملت المشي. لقد كنت غاضبة ولم أشأ أن أكلم أحداً ولا أن يراني أحد. لم أعد أجرؤ على النظر في المرآة منذ ذلك الحين. في الواقع أصبت باكتئاب حاد لدرجة جعلتني أفكر بالانتحار».

فأكمل فيليب بهدوء وتفهم في النهاية: «لا شك أن عائلتك قد احتضنتك لكي تتجاوزي الأزمة».

وضحكت بتقطع قائلة: «كان الجميع يحاول مساعدتي. لأنهم اعتبروا أنني هشة ولا يمكنني التكيف مع الواقع. وما زالوا حتى الآن يحاولون حمايتي؟».

- ولمَ يفعلون ذلك؟

فقالت وكأنها تكره نفسها: «يريدون تجنيبي الألم فالناس يعتقدون دائماً بأنني ضعيفة جداً».

قال فيليب بحدّة: «أنت لست كذلك، بل أشعر بأنك قوية بما يكفي لتبدئي كل شيء من جديد».

ورفعت كيت رأسها ونظرت إليه بتردد، فقال: «من يمر بتجربة عاطفية قاسية يصبح أقوى وأقدر على مواجهة الحياة. لكن يبدو أن مبالغة أسرتك في حمايتك لم تعطك الفرصة لذلك».

حدّقت في وجهه فرأت، وللمرة الأولى، الغضب المتصاعد في عينيه الضيقتين. ورددت متسائلة: «هل تعني أن اللوم يقع على أهلي الذين حاولوا تجنيبي الألم؟».

فقال فيليب وقد صب غضبه بدقة على تصرفاتها: «ما لا أفهمه هو لما يدعك أهلك متعلقة طوال تلك السنوات بهذه التفاهات. كان يجب على الإخصائيين أن يجعلوك تتخطين ذلك؟ هل قلت إنك زرت طبيباً معالجاً؟».

وقالت كيت بتأمل: «أجل».

وفجأة، رغبت بالضحك وبالجري، ملقية رأسها في الهواء وراقصة بفرح: «أجل، فعلت ولكنني لم أتمكن من التحدث عن الأمر إلى أي كان في السابق».

فقال فيليب بتفهم: «إذاً، دعي الموضوع ينتهي هنا».

- آه، أجل، أجل.

وانحنت إلى الأمام وأراحت رأسها على كتفه. استطاعت أن تشعر بقوته تتدفق فيها. لقد كان ثابتاً كالصخرة. قال بين خصلات شعرها: «أعني ما أقول كيت. أستطيع محاربة الأعداء والعالم إذا اقتضى الأمر ولكنني لا أستطيع محاربة ما يدور في رأسك».

- لا عليك، فأنا بخير الآن. سأكون دائماً بخير معك».

وأخذها في جولة إلى مملكته. أراها أمكنته المفضلة وقدمها لها كما لو أنه فارس يعود من الحرب محمّلاً بكل نفائس العالم. أخذها إلى صالة اللوحات المزدانة بصور أجداده: «عائلتي تشتهر ببرودة أعصابها وبعدم النسيان. وإذا ما خان أحدهم الثقة فإنهم يلاحقون الخائن إلى الأبد».

ذهبا إلى قاعة الحراسة في القصر القديم ورأت نوافذها الضيقة التي

www.elromancia.com

كانت تستعمل للقنص وأرضها الحجرية. قال فيليب بابتسامة خبيثة: «كنت ألعب دور إيڤان. تحدث الأرض المتحجرة دوياً رائعاً إذا ضربتها بالسيف».

قالت كيت خائفة من لا مبالاة الطبقات المرفهة بشأن تربية الأطفال: «وهل كانوا يعطونك سيفاً لتلعب به؟».

وضحك عالياً لكلامها قائلاً: «سآخذك إلى صالة اللعب».

وذهبا عبر الإصطبلات. ودل فيليب إلى نافذة عليا تطل على غرفة فارغة: «كان جدي يقول إن في وسعي اقتناء جواد صغير طالما أهتم به بنفسي».

ـ يبدو قاسياً.

ـ كان كذلك. كان عادلاً ولكنه لم يكن دافئاً.

ارتاحت كيت إلى دفء ذراعه، واتكأت على كتفه، كما لو أنها ستعوّض عليه كل الدفء الذي حرم منه من دون أن يعرف. فركت وجنتيها بكنزته المصنوعة من الكشمير قائلة: «مع من كنت تلعب؟».

ونظر إليها بمرح قائلاً: «والآن سيثبت حدسك بالنسبة للطبقات الأرستقراطية، عندما تعلمين أن جدي حمل مربيتي على استقدام ولدين لألعب معهما بعد ظهر الأحد، بدلاً من أن يستمتعا بكرة القدم. كانا يكرهان ذلك».

فقالت كيت مداعبة: «إنه حكم القوي على الضعيف».

ـ تماماً. أصبحنا أصدقاء رغم ذلك. أحدهما هو وكيل أراضي الآن، فيما الآخر هو ساعي البريد المحلي. لقد تزوج من ساندي التي التقيتها.

تعجبت كيت: «يا الله!».

وشبكا أيديهما وتحوّلا خارجاً تحت أشعة الشمس. فسألت كيت بفضول: «هل سبق أن لعبت عندما لم يكن ذلك مخططاً له؟».

فتراقصت عيناه: «ليس حتى الآن».

لم تبادله الضحك فقالت وهي تنظر إليه بثبات: «إذاً، يستحسن بنا أن نجعله جديراً بالانتظار».

ابتعدت كيت عنه وسارت باتجاه الحديقة. لحق بها فيليب فتمهلت إلى أن أصبح بمحاذاتها. شبكا أيديهما وسارا بصمت في الممرات، تظللهما أشجار باسقة متعالية كأنها تعانق السماء، بينما تتدلى بعض أغصانها لتلامس رأسيهما. مما اضطرهما إلى الإنحناء في أحيان كثيرة لإكمال سيرهما.

كان الجو حولهما يعبق بشتى أنواع الروائح العطرية. وبدا كأن الورود والرياحين تتمايل باتجاههما، لتوفر لهما جواً رومنسياً دافئاً. لم ينبس أي منهما بكلمة، بل كانا يصغيان إلى زقزقة العصافير وحفيف أوراق الأشجار التي امتزجت بصوت أحاسيسهما الداخلية وضربات قلبيهما، لتؤلف جميعها سمفونية متجانسة في غاية الروعة.

هل تبددت مخاوف كيت تماماً؟

كانت كيت تلتفت بين الحين والآخر إلى وجه فيليب، وكأنها تود قراءة ما وراء تعابيره. كانت السعادة تبدو جلية على قسمات وجهه، لكنها لمحت تعبيراً بدا لها غامضاً، وكأنما أراد فيليب أن يخفيه أو يهرب منه كي لا يفسد سحر هذه اللحظات. ما الذي يخفيه يا ترى؟ هل يخشى هو أيضاً الارتباط معها في علاقة جدية؟ لقد أخبرها بنفسه عندما كان يحاول التخفيف عنها أن بعض الرجال يخشون ذلك، فهل هو أيضاً أحد هؤلاء؟

إنه ينتمي إلى عالم أكثر أناقة وفخامة من كل ما عرفته هي في حياتها. أما هي، فإنها امرأة بسيطة ذات أصول متواضعة. لكن فيليب لا يبدو متآلفاً مع عالمه هذا بالرغم من ظهوره كمفاوض صلب ذي شخصية أرستقراطية. ربما يكون مضطراً للظهور بهذا الشكل نظراً لأهمية وظيفته وانتمائه إلى عائلة كبيرة. كيف لها أن تعلم حقيقته؟ قالت لنفسها: كم أود أن أرى غرفته وأشياءه الخاصة لأتعرف إليه أكثر، آه! كم أود ذلك.

ويبدو أنها تلفظت بجملتها الأخيرة بصوت مسموع. مما قطع الصمت

بينهما. ودفع فيليب لسؤالها: «ما الذي تودينه؟».

ترددت قليلاً ثم قالت بصوت منقطع: «أود رؤية غرفتك».

التمعت عينا فيليب بلمعان غريب، هو مزيج من الرغبة والشوق والتردد. إلا أن كيت تابعت قائلة: «لا شك أن غرفتك بالغة الفخامة كبقية غرف منزلك هذا. أم أنني مخطئة؟».

ـ حسناً... تعالي لمشاهدتها وسوف ترين بنفسك.

أخذها إلى غرفته الخاصة. كانت مختلفة لأنها لم تحوِ ذهباً ومخملاً كغرفة الملكة. لم يكن فيها لوحات قيمة ولا حتى آنية للزهور. بل كانت بسيطة. لقد بدت غرفته هو.

منذ دخول كيت إليها، أدركت بأنها في المكان المناسب لها، كما لو أنها كانت فيه سابقاً.

تعرّفت على ربطة عنق ملقاة على الكرسي، كان فيليب قد ارتداها في حفل الاستقبال ذاك في كورال كوف. كانت الغرفة تنطق به فأحست بنفسها في بيتها.

كانت آخر خيوط الشمس تتسلل إلى الغرفة عبر النافذة، فتغمر الأريكة الموضوعة بجانبها بجو شاعري مميز. تقدمت كيت باتجاه النافذة كأنها مدفوعة بقوة مغناطيسية؛ فغروب الشمس وتسلل الأشعة إلى تلك الزاوية الدافئة من الغرفة أعاد إلى ذهنها صورة كورال دوف... فهذه الأريكة تبدو كأنها معدة للعشاق، تماماً، كما في تلك المنطقة الإستوائية الخيالية.

بدا فيليب مسحوراً، وكأنه يتعرف إلى المكان للمرة الأولى في حياته. وكأن هذه الغرفة غدت مكاناً آخر أكثر روعة وجمالاً. طبعاً! فكيت لم تكن هناك من قبل. تقدم نحوها ببطء. وقف خلفها وغمرها بذراعيه، ثم همس من فوق كتفها: «تبدين جميلة كالملاك!».

أغمضت كيت عينيها واسندت رأسها إلى كتفه. يمكنها الآن أن تنسى كل متاعب الحياة وأن تمنح قلبها لهذا الرجل إلى الأبد. سرت في جسدها

ارتعاشة وأحست أن سحره يتسلل إليها كالماء المتدفق تحت الصخر.

أدارها فيليب لتواجهه، وعانقها كما لم يفعل أحد من قبل. لم تعرف كيت كم من الوقت مضى وهما غارقان في بحر مشاعرهما، ثم فتحت عينيها أخيراً، لتنظر مباشرة داخل عينين مملوءتين بالحب والحنان.

***

www.elromancia.com

٩ ـ وتفتحت الأزهار

قالت كيت وقد بدت مستمتعة وغير متفاجئة: «وكنت أظن أنني لا أحبّ أن ينظر إليّ الناس».

قال فيليب: «جيد».

سألت مصدومة: «ماذا؟».

ـ استمري على هذا النحو. أنا حبيبك ولست عابر سبيل.

وأضاف: «لا يحق لغيري أن يمتع نظره بك. إبق الآخرين بعيداً عنك».

أغمضت كيت عينيها وضحكت ضحكة حالمة.

كان رائعاً أن يجلسا سوياً فيما توارت الشمس وراء الهضبة خلف النافذة. رائع أن تقول التفاهات وتعلم أنّ كلاً منهما يفهم الآخر. كل فرحة تقاسماها قربتهما أكثر. كل عناق متملك جعلهما أكثر هياماً. قالت برقة: «لم أكن أعلم أن الأمر سيغدو بهذه البساطة بيننا».

داعب شعرها برؤوس أصابعه وأجاب: «وأنا أيضاً».

وضعت رأسها على كتفه مما جعلها تشعر وكأنها تعرف سرّاً عنه؛ وهو أنه خلف بذلته الرسمية وطباعه المنضبطة، هناك انسان من لحم ودم، رجل يمكنه أن يعرف العشق والغرام.

أمسك بيدها قائلاً: «أتشعرين بالراحة؟».

شبكت أصابعها بأصابعه، شعرت وكأنها لم تكن على مقربة من أي انسان إلى هذا الحد. فكرت وتساءلت: «من كان ليعتقد أن بامكاني أن أشعر بهذا الاطمئنان معك؟».

أضافت مؤكدة وقد غلبتها أحاسيسها: «كل شيء فيك مريح... لم أشعر براحة مماثلة من قبل».

ثم همست: «فيليب؟».

ـ نعم؟

قالت وهي تتنهّد: «أحبك».

راح فيليب يحدّق إلى الظلام في الخارج. كان يضمّها بقوّة وكأنه يحميها. ولكن الضحك زال ومعه الدفء عندما تراءى أمامه مستقبل غير مستقر.

«عش كل يوم بيومه» هذا ما قالته له كيت. إنما كيف بإمكانه ذلك؟ كيف؟ كان قد شهد على عدّة زيجات لزملاء له مبنية على الغياب التام في مجال العمل. ولأنه مفاوض سلام، فذلك يعني الابتعاد عن العائلة لأسابيع، وأحياناً لأشهر. والخطر! إنه يعلم كم هي حساسة. لقد رأى ذلك. كيف لها أن تتأقلم ليس مع غيابه فحسب، إنما مع تعرضه للخطر لأنه هدف أيضاً؟

لن يكون ذلك عادلاً بحق أي امرأة.

الأيام التالية كانت ساحرة لكيت. فيما تفتحت الأزهار وازدادت حرارة الشمس، بدا وكأنها راحت تنفتح على حياة جديدة. سارت مع فيليب في الحدائق، وعبر غابات أشبرو، وجلست معه في غرفة الجلوس المضاءة من نار الموقدة وهما يشبكان أيديهما. عندما كانا ينفصلان لساعة من الوقت، كانت تذهب إلى المكتبة حيث كان يعمل فيترك عمله ويمدّ ذراعيه تجاهها وكأنها ملاكه الحارس. وكانت تتكلم طوال الوقت. كم تكلّمت! أخبرته كيف أنها كانت تنتقل من وظيفة إلى أخرى طوال الوقت، بحيث أنه لا يمكن لأحد أن يوقفها. وأخبرته عن أوضاع أمّها الاقتصادية السيّئة

عندما كانوا أطفالاً دون خجل أو مرارة. وعندما دخلا الغرفة الخاصة بالبيانو اعترفت له بفشلها في حفلة البيانو بالرغم من متابعتها العديد من الدروس.

وعندما توقف فيليب عن الضحك، شغلّ لها اسطوانة هادئة فكادت كيت تبكي. أخيراً لدى انتهاء المعزوفة، قالت: «أهي أوبرا؟».

أجاب: «في الحقيقة هذا النوع من الموسيقى ليس عصرياً، لكنّه يعجبني».

في صباح اليوم التالي، كانت كيت تجالسه في المكتبة، حيث قرأت شعراً كان قد كتبه أحد أجداد فيليب. فأخبرها فيليب بكسل: «كان الأسوأ».

كانا جالسين قرب النافذة سوياً يشربان القهوة. بقي لهما عشرون دقيقة في المنزل قبل قدوم ساندي. كانا يحاولان استغلال الوقت المتبقي لأقصى حدود. قالت كيت: «الأسوأ؟ لماذا؟».

انقبضت أسارير وجهه وقال: «الشعر؟ وسيلة نقية لتحقيق الذات. كان آل هاردستي من العسكر. كان من المفروض أن يقوموا بواجبهم، لا إضاعة الوقت بكتابة الشعر الحزين».

ها هي مجدداً تلك النبرة الضعيفة التي تعبرّ عن الانسحاب. ارتعبت من غير أن تعرف ما تفعل. هنا تكمن أهمية أن تكون المرأة ذات خبرة، عوضاً عن شخص استسلم للتو للهروب من المرايا. تلك الفكرة ذكرتها بأمرٍ ما فقالت: «عليّ الذهاب لرؤية عرابتي. لا أظنها بعيدة كثيراً عن هنا».

ارتخت ذراعه الملتفة حولها، وكأنه يتهرب من الفكرة. استدارت كيت لترفع رأسها وتنظر إليه: «فيليب؟».

كان يبتسم، ليس تلك الابتسامة الدافئة الحميمة التي فكرّت أنها لن تلقى منه سواها الآن، إنما تعبير أكثر انقباضاً. ارتعشت كيت، وقالت مجدداً: «فيليب؟ هل من خطب؟».

أجاب حينها: «لا شيء. تريدين أن تذهبي لتزوري عرّابتك طبعاً».

إنه يغار. جالت في رأسها هذه الفكرة لبرهة، وشعرت بالارتياح. مدّت يدها لتلمس وجهه قائلةً: «ليس لوحدي يا أبله. أريد أن نذهب سوياً».

تردد لفترة لا نهاية لها. فجأة، شعرت بالذعر من غير أن تعرف السبب وقالت: «ألا تريد الذهاب؟».

عندها عادت ابتسامته إلى حقيقتها من جديد، مما أزال عنها عبئاً كبيراً وأشعرها بالراحة. انحنى إلى الأمام وعانقها بخفّة. لم تكن قد اطمأنت بشكل تام وقالت: «أود الذهاب حقاً!».

ـ إذاً سوف نذهب.

إنما تلك الحميمية كانت قد تلاشت. حدث ذلك مراراً وتكراراً خلال النهار.

أولاً، رأت كيت الشمس في الصباح تنعكس على قطرات الندى خارج نافذة المطبخ. استدارت نحو فيليب لتخبره بذلك. وكان من المفروض أن يكون بصدد قطع الخبز لوجبة الفطور، لكنه كان متوقفاً وسط العمل. كان يحدق في الفضاء وعلى وجهه تعبير عابس وصل إلى قلبها. أغلقت النافذة بهدوء، وهو لم يلاحظ شيئاً.

كان الأمر مماثلاً عندما سألته عن إحدى اللوحات الحديثة الضخمة في غرفة الطعام. كانت لامرأة ترتدي فستاناً ومجوهرات رائعة غير أن ما جذب انتباه كيت هو تعابيرها. بدت كما لو أنها مقيّدة بإحكام وكانت على وشك الانفجار. قال فيليب بتجرد: «تلك؟ إنها لبوسكو».

وهزت كيت رأسها: «لا أهتم بشأن الرسام. من هي؟».

قال فيليب بتجرد أكثر: «إنها أمي».

وحدّقت كيت باللوحة وقالت ببطء: «إنها لا تبدو سعيدة».

هز رأسه بلا مبالاة: «تدل على ما أراد بوسكو الإيحاء به... لم تكن سعيدة».

ولكن كيت أردفت تقول: «ولكنها جميلة! وهذا العقد! ما الذي جعلها تعيسة فلم تستطع الاستمتاع به؟».

- إنه عمل والدي.

وعبست كيت: «الديبلوماسي؟».

- والعسكري إذ لم يتمكن من ترك الجيش وراءه، حتى ولو كان ملحقاً عسكرياً في سفارة. وكانت هي تكره ذلك.

- ولماذا؟

اقترب أكثر من الصورة، ونظر إليها بعبوس خفيف وقال ببطء: «أعتقد أن الوضع كان أكثر جدية مما كانت تتوقع. التقيا في كمبريدج حيث لم تحصل محاولات اغتيال هناك. ولكن عندما رسمت تلك اللوحة، كانا قد زارا أفريقيا والخليج ونجا من انفجاري سيارة ومن الخطف ومن محاولة طعن. أظنها لم تستطع التكيف مع هذا الوضع».

اقتربت منه وأمسكت بكتفيه قائلة بمرح: «حسناً، عليها أن ترتدي ثياباً جميلة، فهي تبدو وكأنها تستعد لأن تتوّج».

انفجر فيليب ضاحكاً: «كان والدي يهوى الحفلات. وهناك لوحة أخرى له في المكتبة بالزي الرسمي والميداليات».

نظرت كيت إلى أعلى: «أهذا هو والدك؟ حسبته من العصور الوسطى».

قال فيليب وقد بدا عليه الاستمتاع: «أصبت. فلا هو ولا جدي كان لهما صلة بالقرن العشرين. في أسرتنا يقوم الرجال بواجبهم، هذا ما هم عليه».

وماتت ابتسامته: «لقد حطم ذلك أمي. فأثواب الحفلات والماسات لم تعوض عليها».

اقتربت منه كيت وقالت بتعاطف: «لن تعوض بالتأكيد. لكن هل أحبته؟».

وسقطت ذراعه عن كتفها وقال متثاقلاً: «آه، أجل، لقد أحبته».

- إذاً، لا بد أن الحب قد ساعدها لتحتمل.

نظر إليها دون ابتسام: «لم يبد الأمر كذلك حينها، كيف لي أن أعلم؟».

وعادت تعابيره إلى التجهم، فارتعشت كيت دون أن تعرف السبب.

كان فيليب يمثل السحر بعينه بالنسبة للعمة فلورا، ولكنه بدا جليدياً كجبال الأطلس. رأت كيت أن عرابتها تشعر بالانزعاج بينما كانتا تجلسان في غرفة جلوسها الصغيرة والمزدحمة، فبدت كيت منزعجة بدورها. حاولت أن تستمد ثقتها من فيليب ولكن بدا أنه يتفادى النظر في عينيها. لم تقتنع بذلك ولكن لم كل هذه المسافة بينهما؟ لم لا ينظر إليها؟ وفي النهاية، لم تعد تحتمل الضغط، فقالت: «أظن بأن علي الاتصال بتاتيانا للتأكد فقط من أنها لن تقفل النافذة في وجه قطتي».

وفكرت كيت بأن فيليب سيعود ربما إلى طبيعته إذا ما أحس بأنها لم تعد تراقب تصرفاته أمام عرابتها. التجأت إلى الرواق حيث كان هاتف فلورا العتيق معلّقاً على الحائط. تركت فلورا فيليب يتجاذب معها أطراف الحديث، ثم نظرت إلى أعلى وقالت له بوقاحة دون أن تلقي بالاً لتدخلها: «هل أخبرتك كيت عن مشاكلها؟».

وانكمش فيليب: «أعلم عن فقدان الشهية المرضي إذا كان ذلك ما تشيرين إليه».

أومأت فلورا حزينة وراضية في الوقت نفسه: «حسبتها ستفعل. إنها فتاة شجاعة. أخبرتك أنها تخطت ذلك، لا؟».

وقال فيليب بلطف: «لا يمكنك توقع أن أكرر محادثاتنا الخاصة أمامك».

وحدّقت فلورا به صامتة للحظات من وراء حاجبيها السميكين. ولكنها بدت في النهاية سعيدة بما رأته، وأومأت بحركة خرقاء: «حسناً، لا

أعلم. ولكنني أدرك بأنها رقيقة القلب».

راقبها فيليب بهدوء ولم يجب. ولم تتوقع فلورا أن يجيب فقالت بإذعان: «كانت دائماً هكذا منذ طفولتها. عاشت هنا مدة طويلة. كنت سعيدة بإراحة أمها. أشعر بالأسى على جوانا، إذ تبين أنها حامل بعد رحيل زوجها بأسبوعين».

وعقد فيليب حاجبيه لكلامها. لكن فلورا لم تلاحظ: «كانت ليزا وكيت معتادتين على المجيء والبقاء معاً. ولكن كيت كانت تحضر معها دوماً أغراضاً محطمة إلى البيت. طيوراً مكسورة الأجنحة، هر صدمته سيارة. كنا نذهب دائماً إلى الطبيب البيطري، وقد كلفني ذلك ثروة. ولكنها كانت دائماً ترعاها بنفسها عندما نعود إلى هنا».

ونظرت إليه مباشرة: «كانت تريد دوماً تصحيح الأشياء».

أخذ نفساً قصيراً. غير أن ما كان سيقوله قوطع بعودة كيت إلى الغرفة. بدت متوترة فقفز فيليب أمامها واختفت تلك النظرة الباردة. قال ممسكاً بيديها: «ماذا هناك؟».

فبادلته بإحكام قبضتها عليه بصورة غريزية: «إنها ليزا.. تاتيانا تقول... آه، لا أصدق ذلك».

فقالت فلورا بلهجة عملية: «إذاً قولي لنا لنرى إذا ما كنا سنصدّق».

وارتجف صوت كيت: «تقول تاتيانا إن ليزا ستنفصل عن نيكولا».

قطب فيليب وامتلأت عينا كيت بالدموع: «أخشى فعلاً أن تكون هذه غلطتي».

ونهرتها فلورا: «آه، أرجوك».

لكن فيليب قال بصوته المتجرد والواقعي: «ألديك إثبات على ذلك؟».

نظرت إليه كيت بطرف عينها، وانتزعت يديها بعيداً. وقالت بحدّة مفاجئة: «لا تلعب دور المفاوض المحترف علي. لقد أخبرتني بأنهما كانا يعانيان أوقاتاً صعبة في كورال كوف، ولكنهما تصالحا. ومن ثم تشاجرا

بشأني قبل عودتها إلى لندن، بشأني أنا. يجب أن أذهب إليها».

وأعلنت فلورا: «لا ينفصل الزوجان عن بعضهما بسبب الآخرين».

قال فيليب محافظاً على منطقه: «هل تحدثت بنفسك مع ليزا؟».

ـ لا.

ـ ألا تظنين بأنه يجدر بك ذلك؟ ربما كانت تاتيانا تلك قد أساءت الفهم.

وهمست كيت: «احتمال معقول».

قالت كيت بإعياء: «لا أملك رقم ليزا. إنها في زوريخ ولا أعرف حتى رقمها في العمل».

فقال فيليب بهدوء: «أنا أملكه».

وحدقتا معاً بفيليب الذي قال لفلورا: «عندما كنت أبحث عن كيت، حاولت الاتصال بكل من أعرفهم. لم أستطيع أبداً الاتصال بها، ولكن لدي حتماً رقم مكتبها في زوريخ. إنه مدوّن في جهاز الكمبيوتر لدي في المنزل».

وقالت كيت: «لنذهب إذاً».

قبّلت عرابتها مودعة إياها بشرود، وكادت تنسى معطفها. جلست على طرف المقعد خلال طريق العودة في السيارة. قال فيليب باعتدال: «أوافق عرابتك في ما قالته. لا تتدخلي في مشاكل ليزا».

واستدارت كيت في جلستها: «ماذا؟».

ـ إنها ليست من شأنك.

فقالت بين أسنانها: «لم تخذلني شقيقتي أبداً وأنا لن أبتعد عنها الآن».

زمّ فيليب فمه ولم يقل شيئاً لبرهة. ثم قال بصوته البارد والهادىء: «لننظر إلى الوضع بمنطق».

عندها انفجرت كيت في وجهه قائلة إن كارثة أختها ليست قضية منطقية، وإنه لا يعلم شيئاً عن العائلة، ولا عن المشاعر، ولا عن التمسك بأشخاص نحبهم. وختمت بالقول: «ليس لديك خبرة في الحياة العائلية».

إلا أنه بدا أكثر تماسكاً واقترح: «أظن بأن علينا تأجيل المناقشة حتى نصل إلى المنزل».

وثارت كيت: «المنزل؟ إنه تحفة أثرية وأنت لا تعرف عنه شيئاً».

ـ كفى!

كان صوت فيليب جليدياً. وفور ترجلهما من السيارة، قفزت وأسرعت نحو الباب دون انتظاره. تبعها ووجدها في المكتبة تحاول إدارة الكمبيوتر بطريقة متسرّعة. ثم أمرته: «جد لي رقم هاتف ليزا».

ورأت كيت أنه يملك عناوين الرؤساء والرئاسات العامة وأسراراً دولية مرتبة بوضوح. لم تكن جديرة بفيليب هاردستي، رئيس المفاوضين. وأثلجتها الفكرة حتى العظام. لو أنها لم تكن مرتبكة بشأن ليزا، لبكت. أومأت دون ابتسام عندما زوّدها بالرقم فالتقطت سماعة الهاتف. فقال فيليب: «سأحضر فنجانين من القهوة».

لم تهتم كيت بما قاله كما أنها لم تقل شيئاً عندما عاد حاملاً الفنجانين. كانت جالسة على المكتب الخشبي وبدت مذهولة. وضع القهوة على قطعة جلدية أمامها وهزت رأسها لترتيب أفكارها وقالت: «إنها عائدة إلى المنزل».

ـ هل تحدثت معها إذاً؟

ابتلعت كيت ريقها: «أجل. عليّ العودة إلى لندن لأكون بجانبها».

ونصحها فيليب: «دعيهما يحلان مسألتهما بنفسيهما».

حدّقت كيت به كما لو أنها تجهل من يكون. فقال: «لم أكن سأطلعك على الأمر. ولكن، عليّ العودة في نهاية الأسبوع. لن يبقى لنا سوى ثلاثة أيام معاً».

ـ العودة؟

ـ استلمت رسالة هذا الصباح وهم يحتاجونني في بيلاناغ. عليّ أن أغادر الجمعة.

شحبت كيت: «وافقت على العودة من دون أن تخبرني».

ابتسم ابتسامة باهتة: «إنهم لم يعتادوا على قضائي إجازة، وطاقم مكتبي يعتقد بأنه يجب عليه مراجعتي أولاً. لم يسبق لهم أن فعلوا ذلك».

قالت كيت بصوت ضعيف: «بالطبع لا ولم سيفعلون الآن؟».

وأدارت رأسها والتقت عينيه مباشرة وردّدت بحدة: «لم قد يفعلون؟ ما الذي تغير في النهاية؟».

ساد صمت لامتناه ثم قال بخشونة: «كنت أعلم أن ذلك سيحدث».

كانت كيت ترتجف وبدت شديدة الغضب، بل أكثر من غاضبة كما تنبأت في سرها: «بالطبع. ما الذي يمكن توقعه من فتاة تعتقد أن الناس أكثر أهمية من الأرقام».

ـ كيت!

ـ أتوقع أنك ورثت هذه الطباع من جد مجهول.

أصابه كلامها في الصميم. فأكملت: «يبدو أن فقدان الإحساس يوازي الإحساس بالمسؤولية في حساباتك».

ـ كيت!

واستدارت في الغرفة الجميلة بخشبها وكتبها الفاخرة المجلّدة. رأى فيليب غضبها وألمها، ولم يعرف ما العمل فكل محاولاته كانت عديمة الفائدة. لقد تاه. وبدا قلقاً بخلاف عادته: «وما دخل هذا بموضوعنا؟».

ولكنها لم تمنحه وقتاً لتصحيح خطأه فصاحت به: «أنت لا تريدني أن آخذ انطباعاً خاطئاً. أليس كذلك؟ فالفتيات الوضيعات أمثالي جديرات بتمضية يوم فقط».

واحتج بردّة فعل غاضبة سرعان ما ندم عليها. فقال: «لقد حظيت بأكثر من يوم».

فصاحت: «حظيت؟ أنت تطردني إذاً؟».

باشر فيليب بتهدئة الجو: «بالطبع لا. أنظري إلى الوقائع لدقيقة. كنت

أنت أول من صرّح برغبته بالذهاب».

حدقت به بصمت فحاول مجدداً: «كوني عادلة. كنت أتوسل إليك لتبقي، إذا كنت تذكرين».

وأخذت كيت نفساً طويلاً: «ولكم من الوقت؟».

لم يجب ولكنه عبس، فشكل ذلك الجواب الذي كانت تحتاجه. وامتد الصمت المرعب بينهما إلى أن قالت كيت بصوت غير مسموع: «أود الرحيل من هنا، أرجوك».

وشحب فيليب ولكنه اكتفى بالقول: «ما من داعٍ. يمكنك البقاء في آشبرو بقدر ما تشائين».

غير أنها استدارت بعيداً. لقد استحالت جليداً الآن: «هل يمكنك طلب تاكسي، أرجوك؟ أود الذهاب إلى أقرب محطة بأسرع وقت ممكن».

ـ سأقلك.

وأصابها كلامه في العمق: «لا!».

لكن فيليب أصرّ قائلاً: «أحضرتك إلى هنا وسأقلك في العودة».

فأذعنت. لم يتكلما في السيارة ولكنه ما انفك يضع يده على عينه اليسرى، كما لو أنه يحاول إزالة غشاء عنها. فقالت كيت في النهاية: «هل تؤلمك عينك؟».

وجاء صوته حاداً: «تؤلم؟ لا».

فاستنتجت: «إذاً، فأنت لا تستطيع الرؤية من خلالها. يجدر بك إيقاف السيارة لأتولى أنا القيادة».

أذعن فيليب وسط ذهولها. وعندما أكملا طريقهما مجدداً، قال بصوت خفيض: «كيت، لم أقصد ابداً إهانتك».

لم تجب، إذ كانت تحصر اهتمامها بالقيادة وبالطريق، كونها سائقة حديثة العهد. وبأي حال، ماذا هناك لتقوله؟ وأكمل: «عملي هو... حسناً، لقد رأيته».

وأطلق ضحكة فجة، خالية من المرح: «قطعت وعداً لأمي بعدم دخول الجيش، وانتهيت في وظيفة أسوأ».

وهز رأسه: «لا أستطيع أن أطلب من امرأة أن تشاركني حياة كهذه».

يمكنك أن تحاول.

لم تقلها طبعاً. كيف يمكنها ذلك؟ فهي ليست المرأة المناسبة له. فهي لا تستطيع ارتداء فساتين الحفلات المبهرجة، ولا أن تضع الماس في شعرها. لا يمكنها إدارة منزل كآشبرو، وهي لا تملك أجداداً عريقين من القرن الثامن عشر كتبوا الشعر. ربما كان أجدادها عاجزين عن القراءة، كما فكرت كيت وهي تكافح لإضفاء شيء من المنطق. لن يتزوجها طبعاً فهو رجل مهم ويحتاجه العالم بأسره. وكذلك أنا! فكرت كيت وهي تصر أسنانها فهي لا تحتمل أن تبكي خلال القيادة.

تابعا طريقهما بصمت وكان يستقيم أحياناً لتوجيهها. لقد بعدت بينهما المسافة. أحست كيت بقلبها ينفطر، وكادت تسير عند الإشارة الحمراء لولا تحذير فيليب لها: «انتبهي!».

أخذت نفساً مرتجفاً وركزت بصعوبة. أوصلته إلى منزله في توتينغ هيل وأطفأت المحرك. ارتعشت المفاتيح بين يديها، وأدركت كيت حينها بأنها كانت ترتجف فعلاً من رأسها حتى أخمص قدميها. بدت كمن تلقت صدمة، وهذا ما حصل بحسب افتراضها. انسلت من السيارة دون النظر إليه. خرج فيليب من السيارة ودار حولها. أخرج حقيبتها من الصندوق، ولكنه لم يعطها إياها. وقف ممسكاً بها وهو ينظر نحوها. كان وجهه غامضاً وقال: «يمكنك مرافقتي إلى الفندق».

هزّت كيت رأسها وقالت بحزن: «كلا، لا أستطيع».

ـ لا أفهم ما تظنين نفسك فاعلة لأختك.

ـ أن أكون معها، أمسك بيدها. أصغي إليها وأعد لها القهوة، ونتكلم عن استغلال الرجال للنساء.

www.elromancia.com

حاولت أن يبدو ذلك دعابة، ولكنها لم تنجح في خضم هذه الظروف التي يمران بها فانكمشت وقالت له: «آسفة».

مدت يدها لتناول الحقيبة فلم يعطها اياها.

- إبقي معي.

كان صوته حاداً مباغتاً كما لو أنه صادر من دون إرادته. بدا ذلك رهيباً ونظرت إليه كيت من خلال دموعها المتجمعة في حلقها: «لا أستطيع».

اسودّ وجه فيليب وبدا معذباً: «لم أنوِ أبداً إيذاءك. لم أقصد ذلك».

فقالت بلطف: «لا بأس. أنت لم تعدني بشيء أبداً. لم تقل حتى بأنك تحبني».

وبدا شاحباً جداً: «لا أعرف ما تعني تلك العبارة. أخبرتك أني لا أفهم الحب. لم أفهمه يوماً».

حدّقت كيت به، واسودت عيناها، حتى زال الاخضرار منهما، كما لاحظ فيليب. وإزداد ارتجافها وبدت بمثل شحوبه ثم قالت بصوت بالكاد يسمع: «بلى، أنت تعرفه ولكنك تخشاه. تظنه سيجعلك ضعيفاً».

لم يقل فيليب شيئاً. فالتقطت كيت حقيبتها بعشوائية، وبدا صوتها مثقلاً: «لا أستطيع احتمال ذلك. علي الذهاب. إلى اللقاء».

لم يتحرك فيليب أو يحاول الكلام بل بدا مصدوماً.

انتزعت كيت الحقيبة منه وركضت على السلالم، كما لو أن جيوش الأرض تلاحقها.

لقد خرجت من حياته، لقد رحلت.

***

١٠ ـ لا تفعلي بي هذا مجدداً!

استقبلتها تاتيانا بذراعين مفتوحتين، متناسية كل خلافاتهما. حتى أنها سمحت للقطة بالدخول إلى الحديقة والجلوس في أحضان كيت. كانت تاتيانا قلقة جداً، لدرجة أنها لم تلاحظ شحوب كيت التي أجابت بطريقة آلية على أسئلتها. قالت تاتيانا: «تبدو ليزا في حال مزرية. لا أعرف ما الذي حصل».

غير أن كيت حزرت ذلك لأنها كانت تعلم ما يجري بدقة. فقد اخبرتها ليزا عبر الهاتف ولذلك قررت العودة بسرعة إلى لندن، حتى قبل أن يواجهها فيليب بالحقيقة البشعة عن علاقتهما، أو بالأحرى عن افتقارهما لوجود علاقة. قالت كيت بثبات: «حسناً، سأعتني بها».

فمن الجيد أنها كانت مهيأة نفسياً. وفور وصولها من سويسرا، لم تذهب ليزا إلى البيت الذي ابتاعه لها نيكولا بعد زواجهما، بل توجهت إلى الشقة. نزلت كيت السلالم راكضة فور سماعها هدير التاكسي على الطريق خارجاً. شرعت الباب وهرولت إلى أسفل الدرجات لتحيط أختها بذراعيها.

- آه، كيت!

كانت تلك ليزا التي شقت طريقها الدراسي، وقوّت عزيمة والدتها عندما كانت تستسلم، ووجدت حلولاً لدفع الفواتير المتراكمة، والتي

www.elromancia.com

قدّمت يد العون لأختها عندما احتاجت إليها، وساعدتها على تخطي الأزمة.
قالت كيت بلطف: «لا تقلقي. أعدك، ستكون الأمور بخير. تعالي وأخبريني كل شيء».

والتقطت حقيبة ليزا وحثتها على الدخول. غاصت ليزا في الأريكة وبدت متعبة، بل أكثر من ذلك، كما لو أنها كانت تبكي لأيام. قامت باعداد القهوة لها. ثم جلست قربها، وقالت بلطف: «أخبريني. أنت حامل ونيكولا لا يريد الطفل. لمَ؟».

هزّت ليزا رأسها، وبدت حزينة: «أعتقد أن المشكلة بدأت السنة الماضية عندما فقدت الجنين في الخريف».

ـ ماذا؟

وابتلعت ليزا ريقها: «حسبت أنني أعاني من الزكام والجميع كذلك. خسرت الجنين قبل علمي بأنني سأرزق بطفل. إنها سخرية القدر. أليس كذلك؟».

ـ آه، ليزا.

أمسكت كيت يدها. فابتسمت لها ليزا ابتسامة شاحبة ومرهقة، فأكملت: «حسناً، نيكولاي كان بعيداً وعندما عاد، غضب مني وتشاجرنا».

فقالت كيت وقد استوعبت مجرى الأمور: «ولهذا السبب، كنتما غير متفقين في كورال كوف».

أومأت ليزا بحزن: «بقينا لأشهر لا نكف عن الجدال. كان ينبغي علينا أن نناقش الموضوع بحكمة، ولكننا كنا نتجادل دوماً. قال إن علي ترك العمل، وعندما رفضت، قال إني لا أستحق طفلاً وإني غير جديرة بالأمومة. أما أنا فقلت أشياء رهيبة، وقد تخاصمنا في النهاية».

أخذت نفساً مرتعشاً فيما صمتت كيت مرعوبة من الدوامة التي لم تخمّن حتى وجودها.

ـ كورال كوف كانت بمثابة فرصة لإجلاء الأمور، ولكن نيكولا كان يمضي معي أقل وقت ممكن.

ـ ولكن، وقبل أن أرحل، بدوت سعيدة. ظننت أنكما تصالحتما.

فقالت ليزا بحدة: «إنه الوهم الكبير».

وطرفت كيت عينيها ولكن ليزا لم تنتبه، فأكملت: «ولكن المشكلة كانت قائمة، لأننا ما لبثنا أن تجادلنا حول أمر معين».

قالت كيت بصوت خفيض: «بسببي أنا؟».

وهزت ليزا كتفيها بلا مبالاة: «مهما يكن السبب، لقد رحل وتركني هناك».

وارتعبت كيت: «هل كان يعلم بأنك سترزقين بطفل؟».

هزّت ليزا رأسها: «لم أكن أنا أعلم حينها».

ـ وهل يعلم الآن؟

ونظرت ليزا بعيداً فرفعت كيت صوتها: «إنه يعلم، أليس كذلك؟ ليزا، هل أخبرته؟».

فقالت ليزا بلهجة دفاعية: «لم أعلم كيف اتصل به. كان خارج البلاد في مكان ما في إحدى استكشافاته».

عضت كيت شفتها: «وماذا تنوين أن تفعلي إذاً؟».

ونظرت ليزا متوسلة: «أن أمكث معك؟ ستساعدينني على تخطي ذلك. أليس كذلك يا كيت؟ أنت الحاضنة الآن».

وبدت كيت مذهولة: «وهل أنا كذلك؟».

تعلقت يدا ليزا بيدي كيت، وقالت بصوت خافت: «طبعاً، ساعديني. أنا خائفة جداً يا كيت».

فاحتضنتها كيت وقالت: «سأساعدك، هذا وعد».

* * *

بدا الأمر سهلاً بالنسبة لكيت، فهي تظن بأنه يمكن إعادة الأمور إلى

www.elromancia.com

نصابها بمساعدة الأشخاص المناسبين. ولكنها، عدا فيليب، لا تعرف أحداً مناسباً. لم تكن تعلم في أي فندق يقيم في لندن. ولكنها كوّنت فكرة عن سبل الاتصال بمكتبه، بعد استراقها النظر إلى دفتر عناوينه. أما فرناندو، الذي كان يبحث عن طريقة لترميم العلاقة بينه وبين رئيسه، فبدا متعاوناً. وقد أخبرها أن فيليب قد استقلّ طائرة، لذا فهو لم يمكث حتى الأيام الثلاثة التي كانت متبقية له.

حاولت كيت عدم الشعور بالإهانة، فطلبت المساعدة للإتصال بصهرها. وقد أمن لها معاون فيليب العنوان بسرعة مذهلة. فالعنوان كان مدوناً في جهازه الخاص. وفي تلك الامسية بالذات، اتصلت بنيكولا.

* * *

استغرقت عودته ثلاثة أيام. ولكنه كان يتصل هاتفياً في كل مرة تتسنى له ذلك، من الفنادق ومحطات القطار والمطارات. بدا مجهداً لحظة وصوله بشعره المشعث وذقنه النامية. ارتمت ليزا في أحضانه كحمامة تائهة وقال نيكولا: «عزيزتي، عزيزتي».

ثم صمت كلاهما وقد بدا عليهما التأثر، فبكت كيت. لم تكن رغبتهما في الاختلاء ببعضهما هي السبب، بل تلك النظرة المرتسمة على وجه نيكولا هي التي هزتها. لم تستطع تصوّر فيليب ينظر نحوها بهذا الشكل. كما أنه لن يأتي مسرعاً لرؤيتها في ثلاثة أيام بمظهر مشعث. ولن يفقد أيضاً تماسكه، كما فكرت كيت بحزن.

تدريجياً، أفاقت ليزا من حلمها الضبابي وقالت دون أن تترك يد نيكولا: «كم أنت حذقة، كيف استطعت إيجاده؟».

وهمست كيت، ولكنهما كانا منصرفين عنها. فقال نيكولا رافضاً التصديق: «فيليب هاردستي؟ لقد حملت مكتبه في نيويورك على ملاحقتي؟».

ـ حسناً، كانت ليزا تحتاجك.

تبادل النظرات مع ليزا وقال بجفاف: «لم يكن هذا قصدي».

وشرحت لها ليزا بلطف: «يبدو أن فيليب هاردستي قد أخبر قومه بأنك مميزة».

وتوهجت كيت قائلة بألم: «آه، لست مميزة إلى هذا الحد».

فتبادل نيكولا وليزا إشارات مفهومة بين رجل وامرأته. وقالت ليزا بمرح: «أفهم أنه رجل لا يحب الالتزام، أنت واحدة من كثيرات».

ـ لا.

وفوجئت كيت من اندفاعها للدفاع عن فيليب: «هذا غير صحيح. إنه ملتزم ولكن لعمله ولمهامه. هو لا يظن أن بوسعه أن يطلب من أي امرأة مشاركته ذلك».

قال نيكولا بهدوء: «وماذا تعتقدين أنت؟».

وأجاب تعبير كيت عنها فنظر نيكولا إلى ليزا مجدداً وقال: «أظن بأنه عليك القيام بشيء ما يا كيت».

* * *

كانت الأمسية مفعمة بأصوات الأدغال. سمعتها كيت وقلبها بين يديها. فبيلاناغ لا تحمل طابع كورال كوف الاستوائي المتمدن.

كان الجو مشبعاً بالرطوبة وبالحشرات التي بدت وكأنها تهدد بحجب النجوم عنها. أحست كيت بأن الخوف كان ليتملكها أكثر لو أن نيكولا لم يزوّدها بالتفاصيل. هكذا وجدها فيليب عندما عاد من مخيم الثوار. لقد زودها نيكولا بالفيزا وبطاقة الحجز وبكل شيء عدا ما ستقوله لفيليب. لذا، بقيت كيت في بيلاناغ محاولة إيجاد ما ستقوله، فيما كانت تنتظر في هذا المكان الوعر. هل ستطلب منه أن يعطيها فرصة؟ لا، فهذا إذلال. تزوجني إذاً؟ لا، فهذا طموح كبير. كانت تشعر بالحرارة الخانقة وبالوحشة التامة لتحتمل أفكارها، لذا ارتأت التنزه قليلاً قرب النهر وأبقت مشعلها مركزاً على الممر الذي كانت تجتازه بجزمتها العالية. كانت تعلم ماذا ستفعل، إذ

تعلمت ما يكفيها لتأمن شر الأدغال، وباتت خبيرة في إرشاد الناس إلى مراكز الاتصالات. كانت سعيدة بنفسها لتعلُّمها مهارات جديدة ولكونها اكتسبت احترام الأهالي، إلا أنها كانت تشعر بالوحشة.

هناك شخص واحد يستطيع قطع وحدتها، كما فكرت كيت. غير أنها لا تملك أدنى فكرة عما ستقوله له. تردد وقع خطوات على الطريق الموحلة. فوهنت وفكرت بتسلق إحدى الأشجار بانتظار رحيل الدخيل. ولكنها أدركت جنون الفكرة. جمدت أرضاً وسلطت الضوء على الوافد الجديد. و....

ـ لا ضرورة لأن تصيبيني بالعمى.

لقد كان هو... هو... بقامته الطويلة والأنيقة. نظرت كيت نحوه عن كثب ولكنه لم يبدُ متأنقاً، أو متماسكاً كعادته؛ توقف بدوره قبل أن يدركها بمسافة قصيرة وقال: «أشكر الله على سلامتك. كنت سأصاب بالجنون لو أصابك مكروه».

قالت كيت بذهول: «ولمَ أصاب بمكروه؟».

وانفجر ضاحكاً: «العناكب، الأفاعي، آكلي اللحوم. تباً، لا أعلم لمَ؟ كل ما استطعت التفكير به هو أنك في وسط الأدغال وأنني لست قربك. لا تفعلي ذلك بي مجدداً يا كيت. أرجوك».

وكاد المشعل يسقط من يديها: «لا أفهم».

أدركها حينئذ وبدا صادقاً في قوله: «أعلم بأنني قد أسأت إليك يا كيت. أعلم بأنني لم أسألك الزواج عندما أتيحت لي الظروف».

وتأملته كيت مطوّلاً. فهل كان هذا فيليب البارد المتماسك الذي يزن كل كلمة ويقوم دوماً بالعمل الصواب؟ إنه يبتسم لها بعفوية ساعياً إلى طلب يدها للزواج. قالت وقد غمرها الأمل: «أنت لا تعني ذلك».

فتأوه: «أجل، أحبك ومنذ اللحظة الأولى عنيت ذلك إلا أنه تطلب مني وقتاً لإدراكه. ألا تذكرين قولي إني سأسمم من يحاول الزواج بك؟».

ـ كانت مزحة.

ـ الدعابات هي طريقة لإظهار الحقيقة.

راحت كيت ترتجف. تناول يديها الممسكتين بالمشعل وقال: «هل سبق أن شعرت تجاه أحد ما أشعر به الآن تجاهك؟».

فصاحت: «إنه ظلم».

ـ لم أكن منصفاً معك. ألا ينبئك ذلك بشيء؟ أنا عادل دائماً مع اللصوص، الجزارين والقتلة ولكن معك، لا.

ولمس وجنتيها برفق كما لو أنه يخشى أن تدفعه بعيداً: «أنت نصفي الآخر، وها أنا أعاملك كالحثالة».

وبدا غاضباً من نفسه، فقالت كيت بلطف: «أنت لم تقم بذلك. رأيت أنني لا أوازي تطلعاتك. هذا كل شيء».

ـ إياك أن تقولي ذلك.

ـ ولكنه صحيح.

ارتبكت لقربه منها، لعدم جهوزيتها، لحاجتها إليه. فدمدمت: «لست رفيعة المستوى، ولدي عادات غريبة، أجهل أجدادي، ولا أستطيع إدارة قصر».

أبعدها عنه وحدّق بها ملياً. بدت تعابيرها صادقة، فقال بنبرة رافضة: «أنت تؤمنين فعلاً بهذه التفاهات!».

وأسبلت كيت رموشها، فقال بأنفاس مرتعشة: «آه من تلك الأهداب».

نظرت إليه: «ماذا؟».

استجمع فيليب شجاعته ولمعت عيناه بدهاء: «ثقافتك واسعة، بنيتها بنفسك، ولا عيب في ذلك. لم ألاحظ أي خصال سيئة فيك. كما أستغني عن معرفة جدودك. ستتعلمين فنون الإدارة. هل ثمة شيء آخر؟».

قالت كيت بتردد: «أنت تسخر مني».

ـ لا سمح الله.

وبدا فجأة جدياً، فارتعشت حين قال: «عندما كنا في آشبرو، شعرت بأنك أنت من أريد».

قال فيليب ذلك وقد صعب عليه العثور على كلمات. هو، فيليب هاردستي، الديبلوماسي المحنك والبارع في اختيار كلماته. وأكمل يقول: «أريتني أموراً عن منزلي الخاص، أماكن كنت في السابق أجهلها. جعلتني أضحك وأحزن، وأود أيضاً أن أكون مختلفاً».

وصمتت كيت وقد غمرها الشعور بالفرح. قال فيليب بصوت منخفض: «أريد فعلاً أن أكون مختلفاً. كنت محقة. كنت أخشى من أن يوهن الحب قواي. لكني لا أود أن أكون كسابق عهدي».

كانت تجهل ما يقوله. اقتربت منه لتشعر بدفئه. وأدركت بأنه لها وبأنها له، إلا أنها لم تعرف ماذا تقول. ثم قال فيليب بألم: «قالت لي عرابتك إنك تسعين دوماً إلى تصحيح الأمور».

التمعت الدموع في عينيها: «فعلاً؟».

وسكتت الغابة المزدحمة بالأصوات والهمسات حولهما. فاستطاعت سماع دقات نبضهما وأنفاسهما المتسارعة ومشاعرهما الصامتة. وأخيراً، وجدت ما تقوله: «هل تحبني؟».

رفع رأسه ونظر بعمق في عينيها وقال: «أحبك».

ـ سأتزوجك إذاً.

جذبها نحوه بخشونة، فأحست أن ضلوعها تكاد تتحطم وقال: «آه، كيت... أيتها الحلوة، والرائعة. من يصدق بأنني سأكون محظوظاً إلى هذا الحد؟».

غير أنها لم تكن تصغي، إذ كانت تجذب رأسه إليها لتعانقه، ولتخبره بما لم يسألها عنه: «أحبك فيليب. قد أقلق عليك عندما تكون بعيداً ولكنني

لن أكون محبطة. كما سأهتم بقصرك حتى ولو أنهك قواي».

بدا صوتها هامساً فضحك بصوت عال وعانقها مطوّلاً فغابت عن الواقع. ومن ثم رفع رأسه وأعلن للأدغال كلها: «ستتدبر أمورنا معاً».

***

www.elromancia.com

الخاتمة

كان مؤتمراً صحافياً حافلاً. بدا الصحافيون سعداء، أما المصورون الذين انضموا إلى مفاوضات السلام فكانوا متحمسين نظراً لكمية الأسلحة التي سلّمت تحت عهدة الأمم المتحدة. فوجىء الصحافيون بمدى تعاون كبير المفاوضين مع أسئلتهم، فسأله مندوب وكالة أنباء موثوق بها وقد تشجع نظراً لمزاج فيليب الجيد: «لقد سرت شائعات عن وضعك الصحي».

ردّ فيليب بمرح: «صحيح أنني عانيت من مشكلة في عيني».

ونظر إلى مكان وسط الزحام: «ويبدو أنها انتهت في الأيام الأخيرة».

سأله مراسل محلي: «هل ستترك يوماً عملك هذا؟ لا بد أنها حياة موحشة وسط ازدحام المراسلين العالميين وفي إطار تلك المفاوضات التي تكللت بالنجاح؟».

في آخر الغرفة المختنقة بالحرارة، تبادل القبطان سوفر وتكساس جو الغمزات، فقطب فيليب هاردستي وقال: «ليس في المستقبل القريب، سأحظى بعائلة وأصدقاء وبزفاف العمر. سأتزوج».

ومدّ يده فاقتربت منه كيت. أحاطها بذراعه وعانقها أمام عدسات المصورين وقال بفخر: «أيها السادة، أقدم لكم خطيبتي».

* * *